www.diwanalarab.com

مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

الجزء الثاني من رباعية دموع التراب

ماسح الأحذية

بسام السلمان - الأردن

-1-

كنت قردا.

كان أبي يقول لي:

- أنت قرد المخيم.

وكانت جدتي التي ما تزال تحتفظ بمفتاح الدار المصدي وليمونة مجففة من شجرة الليمون المزروعة في حوش منزلنا في بيسان، كانت تقول لي وهي تصر عينيها المغمضتين باستمرار:

- انشـــــقت الأرض وخرجـــــت منهـــــا.. بســـــم الله الـــــرحمن الرحيم عليك يا ولد..أنت شيطان.

وكانت أمي التي حملت بأكثر من عشرة بطون ثلاثة ذكور وسبع إناث كنت أنا اكبر الذكور وثامن البطون وعدد منهم ماتوا في بطنها تقول:

-اسم الله عليك وحوليك.. الله يحميك من العيون الحاسدة.

لكني كنت قردا وعفريتا وشيطانا معا، كنت قردا من قرود المخيم وعفاريت الحارة.

**

-2-

كنت متوسط الذكاء المدرسي لكني كنت احمل براسي ذكاء خاصا بالقرود والعفاريت، كنت أتوسط طلبة الصف من حيث التحصيل المدرسي، كان الأول على الصف حامد الرمانة، لم تكن علاماته تنزل عن المائة.

كان يقول إن أمه توصيه بالتفوق لان الفلسطيني لا يملك إلا علمه وذكاءه سلاحا يحميه في هذه الدنيا الغابة.

أطلقنا عليه اسم حامد الرمانة لكثرة حبه وولعه بالرمان حتى انه كان يحل لنا أسئلة واجب الرياضيات ويسمح لنا بالغش والنقل من ورقته في امتحان الإنجليزي مقابل رمانة أو نصف رمانة، ومرة من ذات المرات غاب حامد الرمانة عن المدرسة، وكانت المرة الأولى بحياته يفعلها فهو أبدا لا يتأخر عن الطابور الصباحي، وعلمنا وقتها أن والده ذهب به إلى عيادة المخيم لأنه أصيب بالإمساك بسبب بلعه لحبات الرمان دون طحنها بأسنانه، فأغلقت عنده فتحة الشرج، مما دفع ممرض العيادة إلى إعطائه عددا من الحقن لتسهيل أمور معدته، ومنذ ذلك الوقت صار اسمه حامد الرمانه.

كادت هذه الحادثة أن تسبب له ترك المدرسة، بسبب الحرج الذي أصابه، وتعليقات الطلبة عليه، لكن كنت أنا ومجموعة من الطلاب الذين نستفيد من حامد ووجوده بالمدرسة نقف معه، وقمنا بعدة معارك صفية ومدرسية من اجله.

كان يقول بعبارات الرجال الكبار والنساء الجدات:

- الفلسطيني مقطوع من شجرة، والعلم هو الشجرة الوحيدة التي يتسلح بها ليواجه العالم كله.

لكني أنا حسام القرد العفريت أتسلح بذكائي غير العلمي وعفرتتي من عفريت وشيطنتي من شيطان وقردنتي من قرد أتسلح بهذا الذكاء ليكون سلاحي في الدنيا.

كان حامد الرمانة القائد العلمي لطلاب الصف وكنت أنا قائد المعارك الطلابية والقائد الرياضي لطلبة الصف والمخيم، ليس لكل المخيم أستطيع القول للأولاد الذين هم في سني وفي حارتنا.

معلم العربي أو اللغة العربية الأستاذ سليم الفانوس كان يقول لي:

- أنت يا حسام قردحجي.

وقردحجـي علـى وزن بـويجي وطـوبرجي وقهـوجي وكنـدرجي وكثيـرا نسونجي، ربما تكون هذه الكلمـات مزيجـا مـا بـين اللغـة العربيـة واللغـة التركية.

وكان معلم العربي الأستاذ سليم معجبا بـي فقـد كنـت ابـرع طالـب فـي مدرسة المخيم التابعة لوكالة الغوث، كنت ابرع طالب في كتابة مواضـيع الإنشاء والبيانات الصباحية والقصائد الشعرية التي كنا نلقيها أمام طـابور طلاب المدرسة كإذاعة مدرسية، وكنت امتلك موهبة الرسم، كنـت فنانـا يحاول أن يرسم مدينته لكنه دائما يعجز فكنت ارسم وجوها لزملائي في الصف لا تشبه وجوههم لكنها تعرفهم ويعرفونها.

مرة تجاوزت الحد المسموح لي فيه بالكلام، وخرجت عن الخـط وتجـاوزت الخطوط الحمراء كما قال مدير مدرسة الوكالة لوالدي:

- ابنك شيطان لغة.

سأل أبي بتوسل:

- ماذا فعل هذا القرد؟

نهض مدير المدرسة بصلعته اللامعة وبدلته التي رأيته يلبسها على مدار سنواتي المدرسية وجلس مقابل والدي وقال:

- ابنك زاد العيار حبتين هذا الصباح.

لم يفهم أبي كلام المدير.

سأل أبي:

- ماذا فعل هذا الشيطان؟

نهض مدير المدرسة، تحرك باتجاه كرسيه الخشبي القديم، جلـس خلـف الطاولة، عبث بأوراق كانت أمامه، أصلح من وضع نظارته وقال:

- ابنك يا حاج تجاوز الخطوط الحمراء.

لم يفهم أبي.

سال بعصبية:

- ماذا فعل هذا العفريت؟

ثم نهض والدي، وقف أمام مدير المدرسة وقال:

- أرجوك يا حضرة المدير حدد لي جـرم ابنـي، فهّمنـي حتـى اكسـر لـك رأسه.

قال المدير:

- لم يترك ابنك بلدا عربيا إلا وسبها، وشتم كل العالم.

قال أبي مبتسما وكأنما راق له هذا الفعل:

- ولماذا يسب ابني كل العالم ويشتم كل البلدان ال..؟
- كان دوره اليوم في إلقاء الكلمة الصباحية أمام زملائه في الطابور الصباحي ولم نكن نعرف ماذا كتب في ورقته ولم نستطع إسكاته فانتزعنا السماعة من يده، لكنه لم يسكت.

سأل أبي باهتمام:

- وماذا حصل بعد ذلك؟

نهض مدير المدرسة وأغلق باب غرفة الإدارة وقال بصوت منخفض:

- ماذا حصل؟! صاح طلبة المدرسة بكلمات وشعارات ممنوعة ولولا تدخل المعلمين وحرص الإدارة لخرجت مظاهرة تجوب شوارع المخيم ويتجمع حولها الناس الذين يعرفون سبب المظاهرة والذين لا يعرفون السبب ويعتقدون إنها زفة عرس، وهذا كله بسبب حسام ال..
- 3-

لم تمر هذه الحادثة بسلام والتي من بعدها أصبحت كل كلمة صباحية تمر على حضرة مدير المدرسة ليدقق فيها ويحذف منها الخطوط الحمراء.

لم تمر هذه الحادثة بسلام فقد تم استدعاء والدي من قبل لجنة المخيم وطلبوا منه إسكات حسام وألا سيتم تحويلي إلى الجهات الأمنية وربما يتخذ وزير التربية قرارا بنقلي إلى مدرسة في الشمال أو الجنوب أو ترحيلنا من المخيم.

عاد أبي إلى البيت غضبان بعد أن زار لجنة المخيم، عاد مقهورا لأنه كان يشد على يدي في ذاك اليوم، لكنه في هذه اللحظات يجب أن يسمع كلام رئيس لجنة المخيم وإلا سيتم ترحيلنا وسحب بطاقة المؤن ولن نحصل على طحين أو حليب اللاجئين.

عندما دخل أبي إلى البيت صرخ على أمي:

- أين قردك؟
- سألت أمي بهدوء وخوف:

- ماذا فعل؟

لف والدي في حوش المنزل وقال:

- سوف يقضي عليّ هذا الشيطان اللعين، الم اطلب منه عدم الشتم والسب؟ حتى أن السب حرام بالدين.

سألت أمي بهبل:

- سب وشتم من؟

قال أبي بدون تردد:

- الحكومة..

ثم اختصر معلنا تراجعه:

- الحكومات العر...

ثم تراجع أكثر:

- ابنك الشيطان سب وشتم حكومات العالم وكاد أن يحول المخيم إلى جحيم.

لم تفهم أمي لكنها قالت:

- هو دائما هكذا، وأنت تعرف قردنة ابنك وشيطنته وعفرتته.

-4-

أول مرة اشعر فيها أني مقطوع من شجرة. كنت اسمع المواعظ والمحاضرات من حامد الرمانة، كان دائما يذكرنا أنّا مقطوعون من شجرة لكنا لسنا مقطعين.

كان حامد الرمانة مع صغر سنه يعرف أننا مقطوعو الشجرة ولم يكن بقية طلبة الصف يعرفون من هو الذي قطع شجرتنا، لكني كنت اعرف أو أدعي أني أعرف.

في ذات صباح احتك بعض طلبة احد صفوف مدرسة المخيم بحامد الرمانة، واخذوا يسخرون منه ومن إغلاق شرجه بحبات الرمان، فتدخل طلبة صفنا لصالح حامد الرمانة ،ووقعت معركة في ساحة المدرسة بالأقلام والمساطر والحجارة شاركت أنا فيها كوني قائدا ميدانيا لمثل هذه المعارك الطلابية، كانت خسائر هذه المعركة كسر لوح زجاج شباك غرفة مدير المدرسة. وفي اليوم الثاني أصدرت إدارة المدرسة قرارا

بنقلي من مدرسة المخيم إلى مدرسة أخرى خارج المخيم. والسبب إثارة المشاكل التي كادت أن تنتقل إلى حارات وشوارع وأزقة المخيم.
لم تتخذ العقوبة بحق أي طالب ولا حتى بحق حامد الرمانة، فقط أنا لأني أتجاوز الخطوط الحمراء في المدرسة.
استدعى المدير والدي وقال له:
- قرر مجلس الضبط في المدرسة نقل ابنك حسام إلى مدرسة أخرى وحيث أن هذه المدرسة الوحيدة الموجودة في المخيم فان النقل سيتم لخارج المخيم.
وقع الخبر على أبي كالصاعقة، أدار دماغ أبي العملية خلال ثوان وفكر ماذا سيحل بالولد خارج المخيم، ومن أين يؤمن له مصاريف المواصلات، وهل يستطيع التعايش مع المجتمع الجديد؟
قال أبي بحسرة ورجاء:
- ماذا فعل هذا الشيطان؟
قال المدير:
-ابنك تجاوز كل الخطوط.
-أرجوك يا حضرة المدير..سأكسر رأسه، سأربيه من جديد.
ابتسم المدير ابتسامة خفيفة وقال:
-لا أستطيع، قد وقعت الفأس بالرأس، نقل حسام أفضل من خروجكم من المخيم أو سحب بطاقة المؤن منكم.
كان أبي يحسب ألف حساب لهذا اليوم، فنقلي إلى خارج المخيم يعني مصاريف زيادة من حيث اجور المواصلات والطعام والشراب وكان يخشى علي من المجتمع الجديد.
أصر المدير على نقلي كأنما ينظف مدرسة الوكالة من وباء حل بها.
-5-
رأيتك فجأة تهبطين بجسدك النحيل، نحيل بلغة جمال عجائز المخيم، وقوامك الجميل بلغة الشباب، هبطت من الباص القادم من مخيمكم وسرت باتجاه شيء ما اذكره، كنت ياسمينة اعرفها في ذاكرتي وفي مخيلتي التي كبرت معي، لكني متأكد من أن هذه المرأة الجميلة تعرفني ولا بد أنني عشت معها في الحيوات السابقة قصة حب وغرام

أو اصطدمت بها في إحدى الممرات، لكنّي أعرفها، أنا متأكد منها سرت باتجاه شارع طلال.

نظرت إلى حذائي اللامع، فأنا محترف تلميع الأحذية وان كنت حسام الصحفي الذي أصبح له مكان في عالم الحروف بعد أن كنت بويجيا ماسحا للأحذية تعرفني كل شوارع عمان وأحذيتها، أنا حسام قرد المخيم.

تتبعتك مثل رجل امن أو متحر فاشل، حاولت تقمص رجل مخابرات أمريكية لكني خشيت من نفسي أن تكرهني لأني أمريكي.

تبعتك أتوارى خلف السيارات وخلف الرجال، سرت باتجاه مكان ما اعرفه واعشقه، سرت خلفك، نظرت إلى يمينك تريدين قطع الشارع فارتفعت دقات قلبي خوفا مع أنها لا تراني فلماذا الخوف؟

سرت خلف رجل يدفع عربة محملة بأكياس السكر، كيف عرفت إنها أكياس سكر، كنت عملت في أوقات كثيرة عتال في سوق السكر، وكنت حملت على كتفي أكياس السكر والرز والطحين والملح والهال.

قطعت الشارع بلباسك الطويل، كنت تسيرين بثقة واتزان، قطعت عددا من المحلات التجارية وفجأة توقفت فتوقف قلبي، انه نفس المكان، ونفس الزاوية، زاويتي في قاع المدينة.

وقفت في مكانك متسمرة كأنما تقف على رأسك الطير، كأنك تنتظرين عاشقا تأخر عن موعده دقائق، نظرتي في ساعتك حينا وتحت أقدامك أحيانا كثرة.

بدأت نفسي تسأل ذاكرتي:

-أتكون بنت المقبرة؟

لو أني انظر في عينيها مرة واحدة.

تقدمت باتجاهك، أريد رؤيتك عن قرب، مع أنها كانت سنوات طويلة فصلتنا عن بعض إلا إن صورتك ما زالت مطبوعة في داخل ذاكرة عيوني.

تقدمت خطوة واحدة وأردت أن أخطو بالثانية إلا إن باصا كبيرا محملا بالركاب قطع خطوتي الثانية وقطع النظر إليك، كان يسير ببطء شديد لدرجة انه عندما اختفى من أمام نظري لم أجدك، أسرعت ابحث عنك

لكن النساء منتشرات في كل مكان، بحثت في كل الشوارع القريبة والمحلات المجاورة فلم أجدك.

**

-6-

شعرت في مدرستي الجديدة أني مقطوع من كل شيء وليس من شجرة، شعرت إني مقطوع الذكر والذاكرة والحياة واني مقبل على عالم آخر، جلست في المقعد الخلفي، دائما الطالب القادم جديد يجلس في المقعد الخلفي، الحضور إلى المدرسة الجديدة يعني الاستيقاظ مبكرا جدا والسير على الأقدام مسافة كبيرة والاستماع إلى وصايا ألام الكثيرة وتحذيرات الأب من تكرار تجاوز الخطوط الحمراء مرة أخرى لئلا انقل خارج البلد وأصبح شخصا غير مرغوب فيه.

حاول بعض الطلبة القريبين من مقعدي التعامل معي على إني طالب من الدرجة الثانية، وحاولوا ترويضي على حد قولهم، فقد سمعوا المدير وهو يوجه تحذيراته لي عندما دخل علينا الصف في حصتي الأولى من يومي المدرسي الأول.

وقف أمام الطلبة وهم وقوف والمعلم بجانبه، تنحنح المدير ثم أشار بيده إلى طلبة الصف أن إجلسوا فقال المعلم:

-جلوس.

نظر المدير إلى مقعدي وقال:

- أنت الطالب الجديد؟

وقفت وقلت بأدب واحترام كما أوصاني أبي:

- نعم يا حضرة المدير، أنا الطالب الجديد.

اقترب مني مدير المدرسة والعصا بيده وقال:

- أنت منقول نقلا تأديبيا، وإذا ما كنت تعرف فالتعرف إن مدرستنا مكان انضباط وطلابنا من أفضل طلاب الدنيا.

كنت ما أزال أقف أمام مدير المدرسة بخشوع، قلت كما علمني أبي أن أجيب:

- سأكون عند حسن ظنك يا حضرة المدير.

ابتسم المدير وقال:

- من لم يربه والده تربية هذه العصا.

وأشار بالعصا إلي وانصرف.

وقف الطلاب تحية انصراف المدير ثم بإشارة من المعلم جلسنا جميعا.

شعرت إنني انتقلت من غربة إلى غربة، كنت في غربة المخيم بعيد عن مدينة بيسان وها أنا ألان غريب المدرسة وبعيدا عن رفاق صفي ومدرستي.

كانت مدرستي الجديدة تطل على مدرسة البنات وكان الطلاب في فترة استراحة ما بين الحصص يصطفون في شبابيك الصف وتبدأ إشارات الحب والغرام تنطلق باتجاه طالبات المدرسة المجاورة اللواتي يملان الشبابيك المقابلة بانتظار إشارات الهوى والهيام.

ومع إني كنت بارعا في صف الكلام وقردحجي في كل شيء إلا إني لم أكن مرت في حياتي أي تجربة مع الفتيات ولم أفكر أو احلم يوما ما بأن اتجه إلى مدرسة البنات كما يفعل الطلاب، كنت أظن إننا صغار على هذه الأمور.

وفي ذات صباح كنت أهم بدخول باب المدرسة الخارجي لمحت عيني طالبة جميلة ، ابتسمت لي فابتسمت لها، شعرت أني أريد أن ابقي نظري مدمنا عليها وكما وصف ابن حزم الاندلسي في طوق الحمامة علامات الحب حيث قال:

(إن أولها إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع وهي المنقبة عن سرائرها والمعبرة لضمائرها، والمعربة عن بواطنها، فترى الناظر لا يطرف، يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس)

وأصبحت مقبلا باتجاه مدرستها مسرعا بنظري وقدمي نحو صفها والتعمد بالتبكير في حضوري إلى المدرسة للقعود بقرب طريقها والدنو منها، وأصبحت هذه العلامات تشعل نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعلة وتستطير لهبه.

أردت يوما أن أقف على شباك الصف لأرى معشوقتي كغيري من الطلبة فوجدت كل الشبابيك محجوزة، وفي اليوم التالي كنت أسرعهم في الوصول إلى الشباك مستعينا بخبرتي في الشيطنة والقردنة

والعفرتة، وقفت في وسط الشباك وأطلت النظر سارحا بالشبابيك الكثيرة المليئة بالطالبات دون أن أميز معشوقتي.

وأنا أحاول النظر والبحث شعرت بيد احد الطلاب تسحبني من كتفي، نظرت إليه وإذ هو احد طلاب المقاعد الخلفية، أفسحت له بالمكان بحيث نقف جميعا لكنه رفض وطلب مني العودة إلى المقعد الخلفي، رفضت طلبه فقال لي:

-أنت طالب جديد وليس لك الحق في الوقوف في هذا المكان:

مع أني تذكرت وصايا أمي وتحذيرات أبي لأكف شروري إلا إني قلت له:

-المكان يتسع لنا جميعا.

-لا، أنت غريب وليس لك الحق في الوقوف هنا.

- أنا لست غريبا، أنا ابن هذه المدرسة.

- بل غريب عن مدرستنا ومدرسة البنات

لم اعد اسمع شيئا، وارتفعت درجة حرارتي.

إنا صحيح فلسطيني وصحيح كما كان يقول حامد الرمانة مقطوعا من شجرة لكن لي أصولي، إنا من مدينة بيسان التي أرغمت يسوع بن نون على النكوص عنها والتراجع إلى الوراء بعيدا عنها، إنا من المدينة التي وصفها ياقوت الحموي في معجمه بأنها لسان الأرض ووصف سهلها القائد صلاح الدين الأيوبي بسهل الاقحوانة، إنا من بيت شان والتي كانت تعني في العهد الكنعاني بيت الآلهة شان.

بيسان مدينة عنات وعشروت التي كان يطلق عليها قبل ستة ألاف سنة بيت الهدوء والسكينة.

**

-7-

صار مجيئي إلى المكان الذي توقفت فيه صلاة يومية، أصبحت ابحث عن امرأة مجهولة الهوية ليس لها عنوان، حتى إني لا اعرف تقاطيع وجهها ولست متأكد من شكلها، كل يوم أجوب الشوارع بحثا عن شبح عن خيال عن امرأة ضائعة، تتبعت العديد من النساء والفتيات ضانا إن كل واحدة منهن هي أنت، لكني دائما افشل في الوصول إلى ضالتي وكنت أحيانا

كثيرة أواجه وأنا انظر في وجه امرأة محدقا بتقاسيمها علها تكون أنت أتعرض للشتم والوصف بالجنون والهبل، كنت أتعرض لاحراجات كثيرة.

لم اعد أطيق ليلي، مع أن الليل جنة العاشق وزمن فرحة ومستودع اسرارة إلا إنني أصبحت اكره الليل لان النهار يخرج النساء من بيوتهن ويجعلني أتأمل كل نهار أن أجدك.

هل كنت تأتين إلى المكان الذي التقيتك فيه؟

- كنت كثيرا ما احضر إلى الزاوية التي كنت تجلس فيها مع صندوق البويجي في شارع طلال ، أتذكر كم مرة جلسنا في تلك الزاوية نأكل الكعك مع الشاي أو الخبز مع الشاي وعلى حسابك، كنت تقول أجرة مسح حذاء واحد تكفينا طعام إفطار.
- هل بحثتي عني؟
- بعد أن تركني الإنسان الذي أحببته، الذي اغتصب مشاعري ورماني، لم ادري لمن الجأ، ذهبت في صباح اليوم الثاني لطلاقي إلى معلمة التاريخ وبكيت على صدرها، بكيت كثيرا، استضافتني في بيتها وبعد يومين جئت دون أن اعي خطواتي إلى زاويتيك، جئتك باحثة عن سراب، مع إني لم ازرها منذ أن فقدتك أو منذ إن فقدتني، لم أجدك، ذهبت إلى ساحة المسجد الكبير عليّ أجد تلك الفتاة ذات الجمال الضائع خلف التشرد والعيون الزرقاوتان، لم أجدها هي الأخرى فذهبت إلى المقبرة وهناك بكيت كثيرا كأم دفنت بكرها قبل ساعات.

بعدها صرت إيزيس الفلسطينية ابحث عن حبيبي أوزوريس، بحثت عنه ليل نهار ولكم طال بحثي وأنا أنادي عليه فرددت جبال المدينة السبعة والوديان والآثار القديمة والجديدة صدى صوتي المتضمخ بالشوق والمحبة، كنت أصيح في يقظتي وفي أحلامي:

(أوزوريس، أين أنت يا أوزوريس، يا رجل الشرق، أيها الرجل الفلسطيني، لقد ضيعوك وأبعدوك عني، حرموني من النظر إلى عينيك الطفلتين.)

احتجتك جدا، كنت أجد العالم الذي أبعدنا وفرقنا أصبح ذو فكين سامين وراح يغرس فيّ وفيك أنيابه السامة.

**

- 8 -

شكوت الطالب الذي وصفني بالفلسطيني المقطع إلى مدير المدرسة، ابتسم المدير وقال لي:

-ألا تعلم إن الوقوف في الشبابيك المقابلة لمدرسة البنات ممنوع وهو لا أخلاقي.

-لكني..

أرجو أن لا يتكرر وقوفك في الشباك، فنحن نتبع وزارة اسمها التربية والتعليم، التربية قبل التعليم.

عدت إلى البيت متعب تبدو أثار الغضب والتعب ظاهرة على وجهي، رميت بكتبي التي كانت تجمعها قطعة مطاط فتناثرت الكتب على ارض الغرفة.

صاحت بي جدتي عندما رأت منظر الكتب:

- **أنت ولد شيطان، أنت لن تفلح في الدراسة أبدا.**
- **لمت أختي بيسان كتبي وجلست قربي وضمتني إلى صدرها وقالت:**
- **ما الذي اغضب حسام أل..**
- **لا شيء**
- **أنت غاضب، أنا أختك الكبرى ومن حقي عليك أن تحكي لي.**

نظرت في عينيها فرأيت ملاكا يجلس بين العينين. قلت لها:

- **اسمك بيسان على اسم مدينتنا.**
- **نعم، اختاره لي أبي ليظل اسمها في خاطرة.**
- **ماذا تعرفين عن بيسان؟**

وضعت أختي يدها على رأسي ومسحته بحنان وقالت:

- **بيسان قطعة من فلسطين وفلسطين محفورة في صدورنا، بيسان صباح جميل يتسيقظ مع قطرات الندى، ولما استيقظ صباح بيسان هتفت الأرض في كل مكان معلنة ميلاد الأقحوان، وكلما استيقظ صباح وجاء الغروب تبقى وحدها فلسطين تنتظر الصبح حتى يتنفس.**

عرفت بيسان عبر التاريخ بأنها مدينة البازلت الأسود المقامة فوق ثماني مدن من أقدم المدن الكنعانية العربية وهي مدينة عنات وعشتروت والتي أطلق عليها بيت الهدوء والسكينة.

- كيف هي بيسان، هل زرتها.
- بيسان زهرة القسم الشمالي من فلسطين وتقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من القسم الشمالي وتبعد عن القدس(171) كيلومترا عن طريق أريحا وهي من أقدم المدن الفلسطينية وأطلق عليها العرب الكنعانيون اسم ببيت شان بمعنى الإله شان أو بيت السكون. واثبت التاريخ والجغرافيا إن بيسان لم تصبح في يوم من الأيام مدينة يهودية إذ إنها لم تخضع ليوشع بن نون الذي حاول ضمها إلى قومه دون جدوى لموقعها الحصين ووقوعها على مجموعة من التلال مثل تل الحصين وتل المصطبة وتل الجسر، وتقع على طريق البريد بين دمشق شمالا وكفر سابا جنوبا.
- انك تعرفين عن بيسان الكثير يا بيسان.
- أولا لأنها مدينتي، ثانيا لأني تسميت على اسمها.
- وماذا تعرفين عنها أيضا؟
- اعرف أنها مرت بعهود عديدة. فقد ازدهرت عند اليونان ودعوها باسم سيكثوبوليس وترأست في العهد الروماني المدن العشر الديكابوليس وبقيت بيسان بيد البيزنطيين حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب حين فتحها القائد شرحبيل بن حسنة بعد موقعة فحل شرق نهر الأردن، واستمر الحكم الإسلامي فيها حتى استولى عليها الصليبيون بقيادة تنكرد وعاد السلطان صلاح الدين الأيوبي وحررها إلا إن الصليبين عادوا واحتلوها بعد وفاته وبقيت هكذا حتى قام المماليك بالتخلص منهم نهائيا من الشام كلها.
- وهل لبيسان تاريخ في المقاومة؟
- أصبحت بيسان معقلا من معاقل المقاومة والبطولة منذ أن نزل فيها الشيخ محمد الحنفي رفيق الشهيد عز الدين القسام وأسس فيها جماعة مسلحة لمقاومة الإنجليز وقاموا بمهاجمة دوائر الحكومة البريطانية ومراكز الشرطة ودوريات الجنود إذ شاركت كافة العائلات في المدينة ومن خارجها في شرف الجهاد.
- بعد ذلك تم الاحتلال؟!

- في عام 1948وتنفيذا للخطة التي وضعتها قيادة الهاغانا فقد شن الصهاينة هجوما قويا على بيسان فجر يوم الأول من نيسان وقاموا بقصفها بالقنابل تمهيدا لاحتلالها وكانت حامية بيسان العربية مؤلفة من175 جنديا من فلسطين والأردن بقيادة توفيق التهتموني وتصدوا لهم مدة احد عشر يوما حتى نفدت ذخيرتهم وسقطت بيسان بيد الصهاينة.
- وماذا فعل الصهاينة؟
- اجبروا الأهالي على مغادرة البلدة فورا، اجبروهم بالقوة على الرحيل. وكعادة اليهود في تهجير السكان العرب ارتكبوا المذابح والمجازر التي ما تزال ذكراها مسطرة في عقولنا وقلوبنا.

نمت متكدر المزاج قلق النفس، كنت اشعر بالتعب يسيطر على نفسي قبل جسدي، نمت بعد أن جاهدت كل أرقام الدنيا وعددت آلاف من الخراف البلدية والأجنبية

وبعد أن قرأت الفاتحة وآية الكرسي وقل هو الله احد والمعوذتين.

حلمت بطالبة المدرسة، رأيتها جميلة جدا، حاولت أن تواسي ألمي، رأيتها ما بين جمال أختي بيسان وجمال طالبة المدرسة، سألتها:

- من أنت؟

تبسمت بهدوء وقالت:

- أنا مدينة الهدوء وبيت الآلهة.
- لا بد انك مدينة الأقحوان بيسان.
- نعم، أنا بنت فلسطين وأخت القدس والناصرة.

سألتها:

- حدثيني عنك أيتها السيدة الكنعانية ا لمغتصبة
- كما قلت أنا مدينة مغتصبة من الصهاينة وأنا ابعد عن الضفة الشرقية لنهر الأردن 6 كيلومترات واقع جنوب بحيرة طبريا ويقع إلى الجنوب الشرقي مني سهل مرج بن عامر ويبلغ مستوى انخفاضي عن سطح البحر 30 مترا وأنا اعتبر مدينة من مدن الغور قديمة قدم التاريخ، واقع على طريق قديم يسمى الطريق اللطاني وهو الطريق

الذي يصلني بفلسطين ودمشق وحوران ومع أخـواتي الفلسـطينيات عكا وحيفا ويافا ويصلني بالسلط وعمان والكرك.

- أنت تحتضنين كل التاريخ قديمة وحاضره.
- لي نهر خاص بي يدعى نهر جالود يقع شرقي مدينة زرعين وهو احـد روافد نهر الأردن ويمر إلى الشمال مني وتكثـر حـولي العيـون المائيـة مثل عين الفلوس ومـن القـرى ا لمحيطـة بـي الطيـرة والطيبـة وعـين مارور وسيرين وشطة.
- كانت أختي ليلة أمس حدثتني عنك كثيرا.
- وأنت يجب أن تحدث كل الناس عني، أنت مني وأنـا منـك وأنـت لسـت مقطوع من شجرة..أنـا يعـود تـاريخي إلـى(6000) سـنة قبـل المـيلاد وكان في العهد الكنعاني اسمي بيت شان والـذي يعنـي بيـت الآلهـة شان أو بيت الآلهة وقد سرق اليهود فيما بعد هذه التسمية.
- وما يعني بيسان؟
- اسمي ب فتح الباء وسكون الياء. يقال لأني لسان الأرض حيث نشأت في سهل بيسان الذي يصل وادي الأردن شرقا بسهل مـرج ابـن عـام غربا وهذا الموقع جعلني محط القوافل.
- لكنك رغم جمالك فان في عيونك حزنا.
- معك حق، فانا واقعـة فـي أيـدي اليهـود منـذ الفجـر الأول مـن نيسـان سنة 1948 وقد شردوا أهلي فمنهم من رحل إلى الناصرة ومنهم مـن ذهب إلى سوريا وآخرون إلى الأردن، وقـد هـدم الصـهاينة الكثيـر مـن البيوت وسرقوا الكثيـر مـن الآثـار ويحـاولون ألان تغيـر معـالمي، وانـي انتظر اليوم الذي تخلصوني فيه من هـذه العصـابة التـي فاقـت التتـار والمغول ببشاعة إعمالها.
- لكنهم عيروني باني فلسطيني، هل أصبح وطني عار
- بل الشرف كل الشرف أن أكون فلسطينيا، فان جارت علينا الأيام فـان ليلها سينجلي عما قريب، أليس الصبح بقريب؟.

**

بعد أن جئت في ذاك اليوم مودعة كما قلت ولم تجديني، أتذكرين أخر لقاء جمعنا، كان صباح يوم الرحيل، هل كنت تودعيني دون أن ادري. ودعتني واختفيت عن الوجود، حدثتني نفسي كثير بزيارتك والبحث عنك، ذهبت مرات كثيرة إلى المقبرة وجلست قرب القبر الخامس، كنت غريبا عن هذا الوجود وعن هذه القبور، سألت القبور عنك فلم تجبني لأني غريب الديار.

ذهبت إلى فتاة المسجد وسألتها عنك لكنها انكرت علمها، جئت يوما إلى المخيم ابحث عن فتاتي الضائعة، المخيم كبير، كل البيوت في المخيمات المنتشرة في شتات العالم متشابهة وكل وجوه ساكني المخيمات متشابه بالهم والتشرد والتشريد والفقر والمعاناة.

لم ادر من اسأل وعن ماذا ابحث، لكني تجولت في أزقة المخيم الضيقة احمل على كتفي صندوقي، صندوق البويجي واحمل في رأسي دوار كبير.

كنت ابحث وأدور في وجوه المارة واستشف رائحة المجاري المكشوفة.

تعبت قدماي من البحث عن امرأة مجهولة وتعب رأسي من الأحلام وانهد كتفي من حمل الصندوق، وقررت أن أغادر المخيم لأني كنت طفلا وأريد أن اصل إلى مخيمي قبل حلول الظلام، خفت أن أضل طريقي في أزقة مخيمكم.

-لم افتقدك كثيرا.

- افتقدتك كل دقائقي.

- بعد أن تركتك دون وداع عدت إلى منزل أقاربي في المخيم، لم اشعر إني افتقدك كثيرا، كنت حدثت زوجي أو عريسي عنك، وكان سألني عن الذي بيننا هل هو حبا فأنكرت ذلك، كنت صادقة معه لم اشعر بك تحبني يوما من أيامنا القليلة.

- لكني كنت احبك.

-لم أر الحب في عينيك.

- كنا صغارا على لغة العيون وكنت مشغولة بساكن القبر الخامس.

- كنت طفلة.

- كنا طفلين.

-لكنك استطعت أن تصل إلي.

-بعد بحث وتقصي، بحثت عنك طويلا.

- علمت انك ستعودين الى هذا المكان.

- لم ابتعد عنها واذا لم ازرها هي تزورني .

- وهل كنت تزور المقبرة باستمرار؟

- لم انقطع عنها، كنت أزورها باستمرار وفي أوقات مختلفة كنت ابحث عنك فيها لعلك تأتين إليها يوما، كنت متأكدا من زيارتك لها. ولكن متى تأتين؟ كان سؤالا صعبا جدا، وفي أي وقت اجدك .

- لم اتوقعك تأتي الى هنا ان تكون مازلت تذكر هذا المكان او فتاته .

- لماذا لم تأتي لزيارتي أو حتى زيارة فتاة المسجد..رجاء اتذكرينها؟

خشيت على نفسي منك؟ أما فتاة المسجد ، فكنت أزورها كل أسبوع، بعد أن أودع القبور احضر إليها

- غريب.

- ما الغريب في الأمر.؟

-كنت أسالها كل يوم وحتى بعد أن قررت ترك المسجد، بعد أن أصبحنا معا نمثل طفلين حبيبين، كنت أسالها فتجيب بأنها لم ترك منذ أن ودعتها في ذاك اليوم الذي قررت فيه الرحيل والعودة إلى المخيم.

- وهل أصبح بينك وبينها شيء؟

-إنها قصة طويلة؟

-كيف؟

- إنها مطلقتي.

- تزوجتها!

- هي بدأت بالحب وهي التي بدأت بالزواج وهي التي قررت الطلاق.

- متى ستخبرني عنها؟

- سنقرأ معا أوراقها التي منحتني إياها قبل موتها او وهي تموت.

- موتها؟!

- نعم، انتحرت أو قتلت أو.. لا ادري ما حصل لها أو معها لكني تفاجأت وأنا ادخل مبنى الجريدة بخبر مقتل سيدة، حاول زملائي اخفاء الخبر عني لكني عرفت بعد فترة أن مطلقتي ماتت منتحرة.

- ما الأمر الخطير الذي دفعها لطلب الطلاق أولا والانتحار ثانيا.

- عندما نقرأ أوراقها ستعرفين جزءا من الإجابة.

**

- 10 -

وقف أبي بين يدي مدير المدرسة كطفل يتيم يطلب الرحمة.

قال مدير المدرسة:

- ابنك مشكلجي.

تنهد أبي وقال:

-ماذا فعل هذا القرد؟

نظر مدير المدرسة في عيني والدي المدمعتين وقال:

-كل يوم مشكلة.

نظر أبي إلى عيني مدير المدرسة بتذلل مدركا تهديدات لجنة المخيم بقطع حليب وسكر وطحين اللاجئين أو نقلي إلى الشمال أو الجنوب أو إخراجنا من المخيم.

قال أبي يطلب الصفح بعيونه:

- يا الهي، لا ادري ماذا افعل له.
- كان مدير المدرسة يريد من أبي أن يخرجني من المدرسة بدل أن اطرد كأنما يريد التخلص مني بدون أن يؤنبه ضميره.
- بالأمس رفض حسام أن يجلس في مقعده، وظل واقفا على الشباك المطل على مدرسة البنات، و عندما طلب منه زملاؤه الجلوس أقام لنا مشكلة ليس لها أخر.

تبسم أبي بألم وكأنما ستكون الكلمات إلي سينطق بها أمام مدير المدرسة حبل المشنقة الذي سيلفه هو بنفسه على رقبتي أو سكين إبراهيم إلي سيذبحني بها دون أن يجد كبشا يهبط من السماء فداء لي.

قال أبي بعد أن اخذ نفسا عميقا متخذا قرارا مصيريا:

-سأشتري لحسام صندوقا.. اليوم وليس غدا.

وضحك أبي بصوت عال وهو يخرج من غرفة مدير المدرسة الذي اتسعت عيونه بحثا عن جواب لسؤال طرحه على نفسه في لحظات:

- هل جن الرجل، وماذا قصد بالصندوق، هل سيذبح ابنه، يذبح ابنه.

ارتجفت الكلمات بين شفتي المدير وجرى خلف أبي ينادي عليه لكن أبي سحبني من يدي وظل يضحك حتى وصلنا إلى محل في قاع المدينة يبيع أدوات تلميع الأحذية وأصبحت من تلك الحظة احمل على كتفي رفيقي وسلاح دربي صندوقا خشبيا مليئا بالاصبغة والألوان السوداء وفرشايات مسح وتلميع الأحذية، وتحول اسمي منذ تلك اللحظة التي ضحك فيها أبي في غرفة مدير المدرسة من حسام قرد المخيم إلى حسام البويجي.

منذ تلك اللحظة التي عرفت فيها قاع المدينة لأول مرة ،قررت بعد أن قرر أبي لي أولا أن يكون صندوقي الجديد البديل الرئيسي لكتبي وفرشاة البوية بدلا من فرشاة الرسم، أصبحت فنانا لكن رسمي صار على أحذية الأغنياء ارسم بفرشاتي والواني لوحات سوداء، لكني لا أوقع أسفل لوحاتي بأحرفي الأولى خوفا من أن تدوسني هذه اللوحات المدهونة والمرهونة بالسواد اللامع.

- وهل تركت المدرسة؟
- والى الأبد.
- وكيف أصبحت صحفيا؟
- علمني قاع المدينة كل شيئ.

سبع سنوات من تلميع الأحذية وحمل صندوق البوية على كتفي والتنقل من شارع لشارع ومن جبل إلى جبل كفيلة بتعليمي كل شيئ.

بدأت عملي الصحفي بالكتابة عن قاع المدينة، كنت وقتها أودع مرحلة الطفولة التي لم أعشها، وكان وضع البلد استقر نوعا ما، وكنت أملاء مخزوني الشعبي بكل ما أرى ولم انس شيئا من الإحداث التي شاءت الحياة لي أن أكون اصغر شاهدا عليها، وذاكرتي لم تنس شيئا بدءا من صندوقي ومرورا بالرصاص المتطاير بلا وعي أو تفكير، وبنت المقبرة وبنت المسجد وأشياء كثيرة كتبتها في زاويتي التي لازمتني حتى غربتي ثم بعد عودتي منها خاليا من العروبة وخاليا من الفلوس، كان اسم زاويتي في الجريدة اليومية زاوية في المدينة وكنت أوقع باسم ماسح الأحذية.

كان الزمن أواخر السبعينات عندما أرسلت أول مقالة لي لرئيس التحرير وتفاجأت عندما رأيتها في صفحة القراء بعد يومين فقط ثم توالت مقالاتي وصارت الجريدة تنشر لي باستمرار.

دخلت يوما إلى مبنى الجريدة لتسليم مقالتي الجديدة وكنت احمل على كتفي صندوق البوية، وفي الوقت الذي أردت الخروج من الباب الرئيسي رأني رئيس التحرير وعلى كتفي صندوق فسألني:

- أنت ماسح الأحذية.

وضعت الصندوق عند قدميه وقلت له وأنا اخرج فرشاة البوية:

- هل تريد أن المع حذاءك.

ضحك بصوت عال حتى إن موظفي الجريدة خرجوا من مكاتبهم على صوت ضحكته.

قال لي:

- حذاءي نظيف كما ترى، أنت من يكتب تحت اسم ماسح الأحذية؟

شعرت أني بطل من أبطال زمان، أغلقت صندوقي وأشرت برأسي نعم.

امسكني من يدي وأنا احمل على كتفي صندوقي ودخلنا مكتبه الذي لم تكن مخيلتي في أي وقت تحلم أن أراه أو ادخله.

جلس خلف المكتب وبقيت واقفا وعلى كتفي صندوقي.

قال وهو يفتح المغلف الذي وضعت فيه مقالتي:

- اجلس.

وجلست وأجلست صندوقي أمامي.

كان مكتبه واسع جدا تزينه لوحات وضعت بتناسق كان اكبرها صورة لكهل كبير في السن يحمل على ظهره قبة الصخر أو القدس أنا كنت احمل على ظهري صندوق البوية أو كيس السكر.

رشف من فنجان قهوته أخر رشفة، وسحب أخر نفس من سيجارته وابتسم وقرر لي:

- سيكون اليوم أخر عهدك بصندوق البوية.
- لم أكن غبيا لكن جملته أغلقت كل مسامات عقلي بحيث لم أدرك ماذا يريد. سألته:
- ماذا تقصد؟

- سيكون لك منذ اليوم مكتب في جريدتنا وستكون منذ هذه اللحظة احد موظفيها.

بكيت، بكيت كثيرا، وأمام رئيس التحرير، فانا دائما في شوق للون الحبر الأسود، ربما أحبه من لون البوية. أحب أن اكتب بقلم اسود.

اخرج رئيس التحرير من جيبه عددا من الأوراق النقدية وقال:

-تغير فيها مظهرك، أنت بحاجة لملابس جديدة فمظهر الصحفي مهم جدا كقلمه.

-لكن..

- لا تخف سأستردها منك حال تحسن وضعك المالي.

تمنيت أن تطير قدماي وتصل بي إلى المخيم بأقصى سرعة، صندوق البوية يعيق حركتي، كنت أضع الأوراق النقدية في جيبي ويدي تمسكها خوفا عليها، فهي المرة الأولى في حياتي التي امتلك مثل هذا المبلغ.

دخلت البيت فرحا، صحت على أمي التي تفاجأت بي أعود قبل موعدي، فأنا أعود إلى المخيم عند غروب الشمس، تسآلت عيون أمي، أبي كان ميتا،

أخبرت أمي بالأمر، بكت كثيرا، ضمتني لصدرها وبكت، مسحت دموعها وتبسمت وقالت:

-لو كان والدك حيا لفرح لك، كان دائما يبكي دون أن يسمح لأحد أن يراه، كان يبكي من قلبه لأنه اخرجك من المدرسة. كان أبوك يشعر بالذنب تجاهك، لكنه كان يريد أن يحميك من نفسك ويحمي العائلة من أشياء كثيرة كانت ستحدث لو استمرت مشاكلك في المدرسة.

-لكني كنت بريئا يا أمي.

أول مرة أقول هذه الكلمة، كنت بريئا، أول مرة أدافع فيها عن نفسي كنت دائما أتحمل قرارات مدراء المدارس واستجابة أبي لهم دون أن ابرر شيئا أو أدافع عن نفسي كأنما كنت اعلم أني لن يسمع لي أو لن يسمح لي بالدفاع عن نفسي.

لكني أمي بكت أكثر عندما قلت لها إني كنت بريئا. قالت:

-إن سبب تركك للمدرسة تجاوزك الخطوط الحمراء، احذر يا ولدي، احذر الخطوط الحمراء.

قلت لامي مازحا:

- أنا أحب الخط الأسود ولا اكتب إلا بالقلم الأسود.

سلمت لامي صندوق البوية الذي رافقني سبع سنوات، كان يخرج معي صباحا قبل طلوع الشمس، كنت أتسمر في زاويتي في قاع المدينة قبل السابعة بانتظار أحذية الموظفين لكي ألمعها وارسم عليها ابتسامة الصباح فيذهبون فيها سوداء تلمع إلى وظائفهم أو إلى أي مكان أخر.

وكان صندوقي يعود معي مساء إلى بيتي في المخيم، صندوقي تلون مع مرور السنين باللون الأسود كقلوبنا التي امتلاءت بالأحزان السوداء بفعل مرور الأيام السوداء منذ رحيلنا من بيسان إلى المخيم، الرحيل الذي استمر مدة طويلة وعلى مراحل.

سلمت لامي صندوقي وقلت لها:

-كان هذا الصندوق خير جليس يا أمي في وقت قل فيه الجليس الصالح، احفظيه في اغلي مكان في البيت، احفظيه في غرفة أبي وضعيه بالقرب من الصندوق الذي يحوي في داخله اشياء أبي وأشياءك.

هذا الصندوق يا أمي كان مصدر رزقنا بعد وفاة أبي وهو طاقة النور التي فتحت لي الحياة.

حملت الصندوق بعد أن طلبت مني أمي أن ادخله إلى غرفتها، غرفة أبي، كان صندوق أبي يضم كل شيء غال وثمين القيمة بالنسبة لأبي، فيه مرفتاح دارنا في بيسان وفيه الكوشان وفيه الليمونة المجففة التي أحضرتها جدتي معها من بيسان.

كانت صورة أبي باللونين الأسود والأبيض تقف شامخة وسط الغرفة، وضعت الصندوق تحت الصورة ونظرت إلى أبي، رأيت عيون أبي في الصورة مليئة بالدموع، ترى هل مازال أبي يبكي على ابنه الذي أخرجه من المدرسة إكراما لشباك يطل على مدرسة البنات لروية فتاة صغيرة كل ما عرفته عنها ابتسامتها، واختفت الفتاة واختفت معها المدرسة.

كيف كان منظر أبي وهو يبكي؟ لماذا لم يخبرني انه ندم على قراره الذي اتخذه وهو يضحك في غرفة مدير المدرسة، هل كان يبكي بدموع أم أن بكاء الرجال يختلف.

كان أبي يبكي عندما كانت فيروز تغني:

(كانت لنا من زمان
بيارة جميلة وضيعة جميلة
ينام في افيائها نيسان
ضيعتنا كان اسمها بيسان
خذوني إلى بيسان)

كان أبي يبكي كثيرا كلما سمع فيروز تغني لبيسان، وكان يحب أن يسمع هذه الأغنية كل صباح بعد أن ينهي عبد الباسط قراءته الصباحية للقرآن.

كنت اعلم إن أبي كان معجبا بكتاباتي أيام مدرسة المخيم، لكنه كان يجب أن يضحي بي وبمدرستي من اجل حماية الأسرة وحمايتي من المشاكل.

هذا صندوقي يا أبي الذي اشتريته لي منذ سبع سنوات وجعلته رفيقي وأنيسي طيلة سبع سنوات احمله على كتفي ويحملني بداخله.حملته بدل حقيبة المدرسة.

كنت لونا اسودا افرغ دموعي على فرشاتي وامسح بها أحذية الأغنياء والأغبياء.

كنت تقول لي:

- إن نهايتي ستكون في هذا الشارع، الشارع الذي اقبع في زاويته ارسم الابتسامة على أحذية المارة، متأكد أن نهايتي ستكون في هذا الشارع من رصاصة طائشة أو من سيارة مسرعة أو من حذاء كبير يدوسني عندما يلعلع الرصاص في كل مكان ويهرب أصحاب الأحذية الكبيرة وسيدوسون كل شيء أمامهم، الأخضر واليابس.

وسألتني مرة إذا كانت الأحذية لديها ولاء ووفاء وقلت:

- أنا امسح أكثر من نصف أحذية المدينة وهي تعرفني فهل يأتي يوم ما يدوسني حذاء لمعته ومسحته أكثر من مرة أو يقذفني به صاحبه، لا أظن ذلك، للأحذية وفاء الكلاب، ألا ترين إنها تتحملنا سنوات وسنوات ونحن ندوسها ونسير فيها من شارع لشارع ونركل بها الحجارة ونعرضها لمسامير ومطرقة الكندرجي وتساعدنا في المعارك

الجانبية كأسلحة يقذف بها الخصم من بعد وهي صامته، إن الأحذية وفية أكثر من الكثيرين.

- -أتفهم كلامك، تلوميني لأني هجرت الصندوق.

تصمتين..

لكن هل كنت تقبلين بي..حسام قرد المخيم البويجي زوجا.

لن تجيبي فالجواب معروف.

**

-11-

لو كنت اعلم انك ستغادرين في ذاك اليوم دون وداعي ما كنت تركتك تعودين الى المخيم وحدك، كنت رافقتك إلى بيتكم لأظل ازورك دون أن تريني، لكنك قررت الرحيل فجأة دون وداعي أو إنذاري تلميحا.

- حاولت أن أودعك، لكني لم أجدك في زاويتك ذاك اليوم، أو ذاك المساء الذي كنت فيه على عجل فذهبت إلى فتاة المسجد وودعتها.

- تقصدين رجاء.

-نعم، لكنها لم تخبرك أليس كذلك، أمرها غريب.

-كانت تحبني وتغار منك.

-تغار مني، لكنا كنا صغارا ولم يكن صار بيننا شيئا، ثم أنا غير موجودة.

هي كانت أكثر خبرة، تعرف كل شئ، احبتني كما ادعت منذ زرناها معا عندما كنا نمر من أمام المسجد أتذكرين ذاك اليوم.

- نعم اذكره، كنا نتسكع في شوارع المدينة ومررنا بها وقتها كان أول لقاء لكما معا.
- وقتها أحبتني كما صارحتني فيما بعد.
- وهل كنت تحبني.
- هي قالت ذلك.

ذات صباح كنت مللت الجلوس في زاويتي فتجولت في شوارع عمان بحثا عن رزقي وبحثا عن حذاء يحتاج الرسم والتلوين وقادتني قدماي وقت صلاة الظهر إلى المسجد الكبير، ساعات طوال منذ الصباح وحتى الظهيرة وأنا ابحث عن حذاء يحتاج إلى التنظيف والتلميع، فرأيتها أو هي

جعلتني أراها، نهضت إلي وأمسكت بيدي واقتادتني إلى مكان جلوسها وقالت لي:

- هل تبحث عني.

لم أكن ابحث إلا عن حذاء.

- اجلس بعد أن يخرج المصلين نذهب معا إلى المدرج الروماني ونتحدث.

كان رزقها ذاك اليوم وفيرا بعكسي، بعد أن خرج المصلين واخرجوا ما في جيوبهم لها ذهبنا إلى المدرج، المدينة مليئة بالآثار الرومانية والعربية والإسلامية، صعدنا إلى أعلى درجات المدرج وجلسنا هناك، اقتربت مني وألصقت جسدها بجسدي، كانت جميلة جدا، حاولت الابتعاد قليلا لكنها اقتربت أكثر وقبلتني على خدي.

شعرت بأنفاسها تقتلني، كانت كما تعلمين مليئة الجسد ذات عينين زرقاوين وجسد ابيض، حاولت النهوض والهروب منها لكنها أمسكتني من يدي وقالت:

- الخوف أم الخجل، أم حبك لبنت المقبرة يمنعك.

- بنت المقبرة، إنني لا اعرف عنها شيئا.

- إذا ما بك.

-لم استفتح بقرش واحد، أريد أن ابحث عن رزقي.

- غير مكانك، اذهب إلى سوق السكر.

-سوق السكر؟

- يتردد عليه الكثير من الرجال، فتمارس عملين معا تمسح الأحذية وتعمل عتالا في تحميل وتنزيل أكياس السكر والرز وغيرها.

كنت ماسحا للأحذية فأصبحت عتالا، كادت حمولة السكر والرز أن تقتلني من ثقلها على جسدي الصغير.

كانت فكرتها جيدة، ماسح أحذية في سوق السكر، لم أكن يوما فيه لكني قررت أن ازوره في صباح الغد فربما وجدت الرزق هناك، الرزق حيث تتزاحم الأقدام.

وفي ذات يوم سقطت وسقط فوقي كيس ملح كنت احمله على ظهري، خفت من التاجر، الملح أصبح لون أرضية ا لمحل، حاولت جمعه لكنه تناثر

واختلط بالأتربة، خفت جدا، كنت على الأرض اجثوا أحاول جمع الملح المتناثر في أرضية المحل وإذ بحذاء يلمع بالقرب من رأسي، رفعت عيوني فإذا رجل تبدو عليه مظاهر النعمة، امسكني من يدي فارتجف جسدي وما حوى، نظر في عيني فخلته قاتلي، تبسم لي فشعرت بالطمأنينة قال لي:

- اتركه، لن يستفاد منه.
- لكنه..
- اتركه وتعال واجلس.

جلس خلف طاولة قديمة وجلست على كرسي صغير كجسدي الصغير، قال لي:

- أنت طفل فكيف تتحمل مثل هذه الأكياس الثقيلة.

صمت، لم ادر ماذا أقول له.

سألني:

- أين مدرستك؟

لم تتحرك شفتاي بالجواب.

قال لي:

- أنت إنسان ويجب أن تعيش كإنسان وأنت طفل ويجب أن تمارس حياة الطفولة.

قلت له:

- أريد مساعدة أسرتي.

سألني:

- من أين أنت؟
- من المخيم..
- أنت لاجئ.

خفت أن يقول لي أنت فلسطيني..... فقاطعته:

- أنا من مدينة اسمها بيسان الجميلة.

قال التاجر:

- بدأت حياتي العملية حمالا في هذا السوق، كان والدي رحمه الله يخدم في الجيش ولم يكن هناك مدارس إلا القليل منها، سكنا

المدينة عندما قرر والدي رحيلنا من الشمال إلى المدينة حيث مكان خدمته العسكرية.

- لم يكن لنا بيت في الشمال. أراد أبي أن نكون قريبين منه، فهو يدفع أجرة البيت في القرية أو في المدينة، أراد لنا أن نتعلم في مدارس العاصمة، لكنه لم يكمل معنا الحياة وتركنا صغار نحيط بأرملة لا تملك من حطام الدنيا ألا تقاعد الزوج الذي استشهد على ارض فلسطين، قتل والدي هناك، شهيدا طبعا.

لكن التقاعد لا يكفي لمعيشة زوجه أرملة مع ثلاثة صبيان وصبيتان، وكنت بكرها فقررت أن انزل إلى الشارع للعمل بأي شيء، وقتها لم أكن املك ثمن صندوقك هذا وآلا لكنت عملت مثلك ماسحا للأحذية، أما مهنة الحمال أو العتال فهي لا تحتاج إلى رأسمال، تحتاج إلى قوة جسدية وصبر وتحمل.

رفضت أمي فكرة تركي المدرسة لان أبي كان يريد لابنه البكر مستقبلا يخرج من غرف المدرسة لا من الشوارع ولان أمي كانت متعلمة ومثقفة وتحب العلم، لكن الحياة كانت اشد وأصعب من أن أظل أفكر واحلم بالمدرسة وبعطف الآخرين على وعلى إخوتي.

- وكيف أصبحت من كبار التجار في السوق بعد أن كنت حمالا.
- الرزق على الله.
- صحيح، لكن كيف.

تبسم التاجر وقال:

-عملت في هذه الدكان أجير عند صاحبه لمدة خمس سنوات. عطف على جسدي الصغير رحمه الله وشغلني عنده، وبعد فترة قليلة زوجني إحدى بناته الأربع وأشركني في تجارته فأصبحت بفضل ا لله من كبار تجار سوق السكر بعد أن كنت حمالا على أبواب المحالات فيه.

زرت فلسطين مرات كثيرة، زرت القدس وحيفا ويافا وزرت أيضا بيسان، مكثت فيها أكثر من عشرة أيام، أما طول كروم فان لي فيها ذكريات طفولية عديدة، أمي كرمية من طول كرم، تعرف عليها أبي عندما كان يخدم في فلسطين وتزوجها.

قلت له:

- أليس العالم غريبا، أنا ابن فلسطين لا اعرف عنها شيئا وأنت لست ابن فلسطين وتعرف عنها الكثير.
- فلسطين لنا كلنا. واعرف عنها الكثير لأني زرتها قبل ضياعها كثيرا.
- وما زلت تذكر عنا شيئا.
- اذكر كل شيء، اذكر طول كرم مسقط رأس أمي، عندما كنا نزورها كل صيف كانت قرية صغيرة تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، تمتد سهولها ساعات من النظر والفرح، كانت مصيفا جميلا وحديقة طبيعية يرسل البحر لها من ورائها زرقته وتحياته وسلامه، كانت البيوت الكرمية مبنية بعناية واهتمام من الحجارة البيضاء وسقف القرميد الأحمر، وكنا نذهب مع أبناء أقارب أمي إلى محطة السكة ا لحديدية ونزور دار الحكومة القائمة في منتهى الطريق الوحيد في الشمال الشرقي من القصبة والدور اللطيفة المنفردة القائمة في الجانب الشرقي من الطريق الذي لا يتجاوز طوله الخمس دقائق والذي يعتبر عرق الحياة في طول كرم.

كنا نشتري من محلاتها وأسواقها التي تقام صباحا ومساء ونجلس على قهوتها الوحيدة في متوسط هذه الطريق وفي نهايتها من الجهة الأخرى يقف جامع الشيخ على المغربي الذي تعلو مآذنه البيضاء لفظة الجلالة بأحرف معدنية.

كان كل أهالي طول كرم صغارا وكبارا يذهبون ويجيئون مساء كل يوم على الطريق الممتد بانحناء قليل إلى محطة السكة الحديدية.

أخبرتني أمي انه في الحرب العالمية الأولى إبان الهجوم البريطاني المشئوم على فلسطين كانت طول كرم مقر لجواد باشا قائد الجيش العثماني الثامن وكان هذا الجيش احد الجيوش العثمانية الثلاثة التي عهد إليها الدفاع عن فلسطين وكانت مهمة الجيش الثامن تمتد من البحر قرب قرية الحرم ومنتهية بقرية فرخة مارة بقرى بيار عدس جنوب قلقيلية.

وقالت أمي رحمها الله لما شرع البريطانيون بهجومهم الكبير على السهل الساحلي احتلوا طول كرم في يوم 1918/9/20 وظلوا فيها الى1948/5/15.

دفع لي التاجر أجرة عملي الذي لم أكمله وكانت تلك الحادثة أخر عهدي بسوق السكر وبعمل العتالة.

تركته بعد أن أوصاني بالعودة مرة أخرى ودعته وأنا أتمنى لو انه فعل معي كما فعل معه التاجر الذي جعله يعمل في هذا المحل أجير، لكنه ربما لا يوجد لديه بنات حتى أتزوج إحداهن.

لكنه لم يقلها وظل واقفا أمام المحل وعندما نظرت خلفي وجدته يرفع يده ويصيح:

-كن نفسك، ابحث عن ذاتك، الحياة أمامك كبيرة وجميلة، كن نفسكٍ

عدت إلى رجاء في مجلسها أمام باب المسجد الكبير وأخبرتها أني لن اعمل غير ماسح للأحذية.

قالت لي وهي تفتح عينيها المغمضتين:

- أنت لا تستطيع إلا مسح الأحذية.

**

-12-

هذه شقتي التي سكنتها قبل زواجي وبعد طلاقي، كنت أعيش فيه بحرية كاملة حتى جاءت رجاء وشاركتني حريتي كزوجة.

-تركت المخيم؟

- قبل زواجي بسنتين، توفيت أمي وتزوج إخواني وأخواتي ولم يعد لي مكان في المخيم.

- يبدو أن شقتك جميلة، هل تسمح لي باكتشاف شقتك.

- إنها تحت تصرفك.

- شقة صغيرة وملمومة على بعضها، مع أن أثاثها متواضع إلا انه يدل على ذوق رفيع، هل أنت من اختاره.

- لا، اختارته رجاء، كان أثاث زواجنا، كانت صاحبة ذوق وكانت تعرف أين تضع كل قطعة أثاث وتختار لها المكان المناسب.

- أحببتها.

- الشقة.

-رجاء.

- كانت زوجتي، وكانت جيدة في حبها. لكن غيرتها قتلتها.

- لمن هذه اللوحة، انتظر، كأنها أنا، إنها فتاة ملونة بدماء سوداء وتحيط بها القبور من كل جانب، يا الهي هذا القبر الخامس.

- والياسمين.

- لكنه ياسمين اسود

- الفتاة في لوحتك لا تشبهني.

- اسميتها بنت المقبرة.

-بنت المقبرة؟!

- كل ما استطعت أن أتخيله.

- لوحة رائعة.

- فازت في مسابقة إقليمية، لو انك كنت تتابعين أخبار ا لفن لقراءتي وقتها حسام محمود يفوز بالجائزة الأولى عن لوحته بنت ا لمقبرة ويهديها للبنت الصغيرة التي عشقت ساكن القبر الخامس واختفت.

- اللوحة تحمل كل ما يعنيه اسمها..بنت المقبرة. فتاة تعاني الخوف والتشرد والضياع، تبحث عن حب فلا تجده، تجلس بين القبور وتحتضن القبر الخامس وتعشق ساكنه.

- هذه اللوحة التي قتلت رجاء.

- قتلت رجاء.

- كانت تغار منها، وبسبب حبي لها ورفضي إزالتها من على جدار مكتبي طلبت الطلاق.

- معها حق.

- كانت تعرف إن لوحة بنت المقبرة جزء لا يتجزاء مني، وكانت تعلم أني لن أتخلى عنها.

- متى رسمتها.

- عام 1983.

- وقت زواجي.

- عندما كنت ارسمها كنت ما أزال اسكن المخيم، رسمتها ببطء شديد، كنت ارسم وبجانبي صندوق البويجي، كلما نسيت ملامحك نظرت في الصندوق فأتذكر شيئا منها وان كانت ا لصورة ضبابية.

- وهل ما يزال الصندوق رفيقك؟

- مازالت أدوات الرسم على الأحذية موجودة في داخل الصندوق، لم أغيرها ولم ارمها، ظلت ترافقني في كل الأمكنة التي اسكن فيها.

**

- 13 -

كنت قرد المخيم..

عندما هبطت مع أبي إلى قاع المدينة وتركني هناك وحيدا بلا شيء حتى ثمن رغيف خبز أو أجرة الباص العائد بي إلى المخيم.

- من عملك غذي جسدك وارجع إلى المخيم.

تركني أبي في قاع المدينة ولم أكن اعرف شيئا عن الغربة الجديدة التي دخلتها، سلمني للشوارع وأسلمني لوادي غير ذي زرع، تركني وهرب من دموعه متجها إلى المخيم، عرفت من طأطأت رأسه ورمي نظره إلى الأرض حتى انه اصطدم بعمود إنارة، لم ينظر أبي خلفه مودعا.

تركني أبي في قاع المدينة احمل صندوقا لا اعرف عنه شيئا، حتى فتحه لا أتقنه.

تركني أبي كمن يترك طفلا حديث الولادة في بركة ماء وهو متأكد من أن الرضيع يستطيع السباحة والعوم لأنه نزل من رحم مليء بالماء.

فهل يكون أبي مدركا إن ابنه قرد المخيم يستطيع السباحة في وسط هذا البحر البشري الكبير، وهذه الزاوية من قاع المدينة.

كنت في المدرسة صعب البكاء، لم ابك يوما مهما كان عدد العصي التي كنت أتلقاها من مدير المدرسة أو من المعلمين، وحتى الركلات التي كانت تطولني من أبي وجلدات البربيش التي كانت تعلم في مؤخرتي فتصبح كحبة الشمندر حمراء، لم تكن هذه الضربات تبكيني، كنت عصي الدمع شيمتي العناد والمعاندة.

كنا نسكن في بيت ذو ثلاث براكيات أو ثلاثة أكواخ، كان احدها غرفة أبي وأمي والثانية للأولاد والبنات وتشاركنا فيه جدتي والثالثة كانت المطبخ والمستودع والسجن الذي كان أبي يعاقبني بحبسي فيه كلما

شكاني مدير المدرسة أو احد المعلمين أو احد الجيران الذين كنا نسطو على حدائقهم.

كان بيتنا يطل على واد متوسط العمق والانحدار، لم يكن سحيقا، كنا في أوقات اليباس نخرج، جميع أبناء الحارة نخرج إلى الوادي للعب في الوادي والتزلج على مؤخراتنا من أعلى الوادي إلى قاعه.

كنت بارعا بالشعبطة والتزلج على مؤخرتي، كان أبناء الحارة أحيانا يجلسون على قطعة قماش أو على قطعة من البلاستك أو الحديد لحماية مؤخراتهم من الاحتكاك بجدران الوادي إلا أنا حسام قرد المخيم كنت ارفض استعمال أي مادة تعزل ما بين مؤخرتي والتراب فأنا حسام القردحجي.

كانت المرة الأولى التي يتركني فيها أبي في زاويتي التي لازمتني سبع سنوات ابكي فيها دموع سوداء كلما رأيت طلبة المدارس يحملون حقائبهم متجهين صباحا إلى مدارسهم أو عائدين إلى بيوتهم يضحكون فرحين بانتهاء اليوم المدرسي، صحيح أنا لم أكن متفوقا بدراستي لكني كنت أحب المدرسة وأحب حصتي اللغة العربية الفن.

وكنت إذا اقبل الليل وحل الظلام على المخيم بحيث تصبح شوارعه الضيقة وأزقته مرتعا للكلاب، كنت اتشعبط على سطح بيتنا المقام من ألواح الزينكو واجلس على تلك الألواح التي كانت ما تزال تحتفظ بحرارة الشمس، كنت اجلس وأراقب الوادي المضاء بنور القمر والنجوم، أراقب مكان التزلج في الوادي، اذكر إن أول مرة نزلنا فيها إلى الوادي كنت وقتها البس بنطلوني الوحيد، ولكثرة احتكاكه بجوانب الوادي من عملية تزلجي على مؤخرتي تمزق من الخلف، لم يكن البنطلون جديدا، كان مليئا بالرقع، ومازال جلدي يتذوق طعم البربيش الذي جلدني به أبي بعد أن أخبرته أمي بقصة تمزق البنطلون.

لكني لم ابك.

المسافة بين قاع المدينة والمخيم ليست كبيرة، قصيرة جدا، كنت بداية عودتي إلى المخيم أعود بالباص، لكني قررت أن أعود مشيا على الأقدام متخلصا من ساعة انتظار على زاويتي في قاع المدينة وبأجرة الباص أعوض هذه الساعة.

كانت المسافة قصيرة لكن حلمي كان كبيرا جدا وضعوه مخنوقا في صندوق اسود يضم أحزاني، لكني أحزاني تحتاج إلى أكثر من صندوق البوية ومن المسافة من المخيم إلى قاع المدينة.

تزيد المسافة أو تقل عن نصف ساعة.

ثلاثون دقيقة صامته اقطعها صامتا، أتجاذب الحديث مع الشوارع، أحدثها عن بيسان، دائما كنت أحدث الشوارع عن بيسان، وكنت اصمت عن الحديث عن مدينتي الحبيبة عندما كنت ارسم لوحة على حذاء واجعله يلمع، لا يليق ببيسان أن يذكر اسمها في حضرة الأحذية، لأنها مدينة الآلهة.

عشقتك وأنت غائبة عن عيني حاضرة في قلبي لكن بيسان كانت حاضرة ا لوجود والوجد في عيني وفي قلبي، لم أكن اغفل لحظة عن حبك إلا بوجود بيسان.

كلما سرت في شارع من شوارع عمان خاصة قاع المدينة أو حاولت السير على أقدامي من قاع المدينة إلى المخيم رأيت سنواتي السبع في سجني، سبع سنوات وأنا أعيش في صندوق اسود، أحلامي كلها مسجونة في صندوق، كانت ترافقني غصة في حلقي وحسرة على السنوات التي قضيتها أتعلم رسم السواد على أحذية الآخرين.

كنت أحاول خلال نصف ساعة استعير تفاصيل مشهد غبت عنه سنوات طويلة، اذهب إلى مدرستي الأولى والى الوادي، اذهب إلى حامد الرمانة الذي قتل في أمريكا، اذهب إلى ماسح الأحذية اسأله عن طفولة وأحلام كانت حبيسة في صندوق اسود، اسأله عن أصابعه التي كانت سوداء قبل أن يحاولون تبيضها

دون جدوى فازدادت سوادا وصار الشعر ابيضا.

اسأل البويجي الصغير ذو الأصابع السوداء عن جزئيات صورة ا لمخيم، عن قرد المخيم عن حسام محمود فكان الشارع يجيبني صمتا.

كلما زرت شارعا كنت أسارع السؤال عن ماسح الأحذية عله يعرفني، أو يعرفك، كنت ابحث عن الأجزاء القديمة من نفسي، اطل على عبق روحي في التاريخ الماضي، أدور في المباني التقليدية المميزة اسأل الأزقة الضيقة وتعرجاتها صاعدة هابطة، أجالس المقاهي الشعبية المنتشرة فيها، أفتش في الوجوه المليئة بالهدوء والسكينة.

لكني كنت أصحو على ضجيج روحي ونفسي، ألاف الأقدام تتحرك في كل الاتجاهات، أحذية تلمع وأخرى تعبت من شدة الألم، تسير بخطوات سريعة يلهث أصحابها للوصول إلى غاياتهم، لكنهم لا يصلون أبدا لأنهم يبحثون وسط غابات إسمنتية صماء.

أسير مسافة نصف ساعة، عيوني زائغة تحمل ألاف الأسئلة الضائعة التي تبحث بنفسها عن إجابتها.

لكن حميمية الشارع الذي يربط قاع المدينة بالمخيم يقودنا إلى حكايات كثيرة آثر أصحابها الفقر وبيت تخفق الرياح فيه تاركين خلفهم قصورا مشيدة منيعة حتى تقر أعينهم.

هكذا هي أرواحنا دائما، مسافرة أو مجبرة على السفر والرحيل والسفر البعيد، نجوب بحارا واسعة ونزور موانئ عديدة نعرف بعضها وبعضها لا تعرفنا ولا يريد هو أن يعرفها، نحب أماكن ونعشقها تعذبنا بابتعادها عنا وتعاقبنا بتركنا لها، لكنا لا بد أن نعود لأماكننا الأثيرة وان كانت بيت تخفق الأرواح فيه مرددين مع الشاعر أبي تمام:

كم منزل في الكون يألفه الفتى

وحنينه دوما لأول منزل.

لم يغب عني ا لمخيم يوما.

ولم يغب الطفل البويجي ماسح الأحذية عن ذاكرتي ثانية أو لحظة واحدة، دائما معي بأصابعه السوداء، أنامله الطويلة التي كانت تجيد الرسم على الأحذية وألان أصبحت ماهرة بالرسم على الحياة.

كنت محترفا في مسح الأحذية، ولم يكن يوما نظري يغيب عن الأرض، كنت أتابع الأحذية في أقدام المارة، فالعالم كله لوحة من الأحذية تحتاج إلى الرسم والتلوين، لوحات بيضاء تسير على الأرض تبحث عن يد فنان ماهر، تبحث عن يد بأنامل سوداء لترسم عليها أجمل اللوحات.

اقترب من المخيم قليلا، وذاكرتي ترسل بي إلى تلك الزاوية في قاع المدينة، اجلس على الأرض تتحمل مؤخرتي رطوبة الشارع، ويجلس أمامي صندوقي يبحلق بي كرجل مخابرات يبحث عن فريسته في باص مليء بالركاب يخشى أن يغيب عن نظره.

هل تعلمي أن ماسحو الأحذية أصبحوا هذه الأيام قلة، وقليلا ما تقع العين على واحد منهم هذه الأيام، كان في الماضي، عندما كنت بويجي، لم يكن الناس ينظرون إلينا نحن ماسحي الأحذية نظرة اعتيادية، كانوا ينظرون إلينا على أنا متسولين واقرب إلى الشحاذين، أي أنهم لم يكونوا يفرقون بيننا وبين رجاء شحاذة المسجد الحسيني.

لكنا نحن ماسحي الأحذية لم نكن نعتبر أنفسنا شحاذين نطلب العطاء بالاستجداء والتسول، كنا نعتبر أنفسنا أصحاب مهنة وصنعة، صنعة لها دور كبير في عام الأناقة، كانت احدى المهن التي تظهر الرجل بالمظهر الأنيق مقابل قروش قليلة ومعدودة.

**

- 14 -

ورثت حب فيروز عن أبي، وورثت البكاء على بيسان عندما تغنيها وتبكيها فيروز أيضا عن أبي.

دخلت أختي ذات صباح كنت أتمارض فيه حتى لا اذهب إلى الصحيفة، كنت استمع لفيروز وهي تغني:

(كانت لنا من زمان
بيارة جميلة وضيعة ظليلة
ينام في افيائها نيسان
ضيعتنا كان اسمها بيسان
خذوني إلى بيسان
إلى ضيعتي الشتائية
هناك يشيع الحنان
على الحفاف الرمادية
خذوني إلى الزهيرات
إلى غفوة عند باب
هناك مددت عيناي
أعانق صمت التراب
اذكر يا بيسان
يا ملعب الطفولة

افياءك الخجولة
وكل شيء كان
باب وشباكان
بيتنا في بيسان
خذوني
خذوني مع الحساسين
إلى الظلال التي تبكي
رفوف من العائدين
على حنين لها تحكي
خذوني إلى بيسان.)
كنت استمع لفيروز وابكي، هذه المرة بكيت كثيرا، لا ادري أأبكي على بيسان أم ابكي على نفسي.
دخلت أختي وقالت:
-حامد الرمانة قتل.
توقفت فيروز عن البكاء، وتوقفت الحساسين عن الطيران إلى بيسان، وتوقف الحكي، قتل، حامد الرمانة قتل.
قاتلت صفا كاملا في مدرسة المخيم ونقلت على إثرها إلى مدرسة خارج المخيم من اجل حامد الرمانة ثم أخرجني أبي من المدرسة، ثم تأتي بكل سهولة وتقولين لي أن حامد الرمانة قتل.
ومن القاتل، من قاتل حامد، من يجروء على قتل حلم المخيم بطفل أو بشاب يحقق له شيئا من ذاته.
القاتل مجهول ولن يعرف أبدا.
وصلتني من حامد الرمانة رسالة قبل أربعة اشهر كانت الرسالة الأخيرة من أمريكا قبل موته، لم يتوقف حامد الرمانة عن مراسلتي منذ أن غادر إلى أمريكا لدراسة الدكتوراة في الرياضيات، لم يتوقف عن الكتابة وعن البكاء.
كان يعشق الرياضيات لدرجة انه فضلها على دراسة الطب مع أن معدله في التوجيهي يجعله مدللا في اختيار الدراسة التي يريد.

كانت رسالته الأخيرة قبل موته تحوي عددا من القصائد، لم أكن اعلم انه يكتب الشعر أو يقرضه، كان يقول معلمو المدرسة عنه: منح حامد الرمانة مخا عليما تطبيقيا،

كانت مجموعة من القصائد النثرية أو الموزونة، كان كتبها خلال غربته لدراسة الدكتوراة أرسلها لكي أعطيه فيها رأيي أو رأي شخص يفهم بالشعر على حد قوله.

لكني لم اقرأ تلك القصائد أن كانت شعرا، لم اقرأها حتى أعطيه رأيي، كنت غبيا، هل عرف حامد مصيره ؟ هل توقع موته كما هم الشعراء والأدباء فقرر كتابة الشعر ، ولماذا أنا من خصه بقصائده.

لكن لماذا اختار بيروت ليموت فيها.

كتب يقول:

(أصبحت متعبا في غربتي جدا يا صديقي وابحث عن ميناء، حاجتي كبيرة لميناء يضمني ويحتضنني لأني افتقد الحضن الرءوم، ميناء يعيدني لكتبي ومدرستي الأولى التي مازلت افتقدها مع أني ادرس في أرقى الجامعات، لكني ما زلت احن إلى خبز أمي على رأي محمود درويش واحن إلى مقاعد مدرستنا الأولى.

بالأمس ظلت عيوني تقاوم النوم، لم تذق عيوني النوم، كان حنيني للمخيم أقوى من النوم وكم تمنيت ألان لو أني حامد الرمانة الذي كاد في يوم من ألأيام أن يتسبب في معركة طلابية تخرج نتائجها إلى شوارع المخيم وأزقته الضيقة، مازلت اشتهي الرمان الذي لم أجده منذ أن وطأت قدماي أمريكا.

كم اشتهي لو أني اتفياء في ظل شجرة نخيل أو شجرة زيتون، زيتونة لا شرقية ولا غربية هبطت إلى الأرض عندما هبط أبونا ادم وأمنا حواء، زيتونة قديمة قدم السماء، وكل زيتون فلسطين قديم قدم السماوات والأرض.

اشتهي شربة ماء من نهر الأردن، لا أريد أن أتعمد فيه أريد أن اروي عطشي المزمن الأزلي من مائه الزلال المقدس.

كنت كلما رأيت أيها الصديق الصدوق عيون امرأة أمريكية، عيون زرقاوان أو خضراوان تمنيت العيون السود، عيون سود تقتلني دون سلاح.. أن العيون التي في طرفها حور قتلننا، أريد شعر اسود مليء بالمسك والعنبر.

أيقنت أيها الصديق الذي سببت له الكثير من الألم أن نفسي وذاكرتي متعبة جدا متعبة جدا وتحتاج لميناء.

هذه الليلة الطويلة التي حاولت أن اجعلها عربية بصحرائها وليليها ورمالها وعيونها السوداء ونخيلها وبحارها وأنهارها، شعرت بها أني قريب جدا من الشعر، لا ادري اهو شعر أم خواطر نثرية تدافعت على أبواب ذاكرتي للخروج، وأنت تعلم أني والشعر لم نكن يوما أصدقاء، عكسك كنت أهوى الرياضيات، لكني ربما أصبح فجأة وكل فجأة جميلة أن أصبح شاعرا، لكني أتوقع أن أكون افشل شاعرا عرفته الصحراء والبطحاء.

لا ادري لماذا كنت تزاحم الكلمات بصورتك، كنت أراك حسام قرد المخيم وظهرت معك صورة تلك الطفلة التي تحتضن القبر الخامس كما أخبرتني، لوحة بنت المقبرة، رأيتكما في صورة مليئة بالسواد، أيكون تأثير البوية ما زال مسيطرا على عقلك؟ ومازلت تبحث عنها، عن بنت المقبرة، أما زلت تدور في شوارع عمان وتقضي الساعات الطوال في قاع المدينة تبحث عن بنت المقبرة؟ وهل ما زالت رجاء تغار من لوحة بنت المقبرة وتطالبك كما كانت دائما بنزعها عن جدار مكتبك؟

ستبحث كثيرا، وسنبحث عن أنفسنا الضائقان طول العمر.

صورك ولوحاتك كلها تشبه الاشتياق إلى أحضان العائلة إلى أحضان بيسان ويافا وحيفا وطول كرم ونابلس والقدس، لوحاتك أحسها تقرع أجراس الطفولة وذكرياتها الحلوة والمرة في آن معا.

أن يجاهر المرء يا عزيزي بعشقه، خاصة أيها الباحث عن الرمال في الرمال إذا كان هذا العشق سرابا, فان الجنون سيلازمه وما مجنون ليلى ببعيد.

أتدري، سأخبرك سرا، وقد لا يكون سرا، لكني أكتشفه ألان في غربتي، هذا السر هو أن أحلى العيش ما يكون في سر العائلة وافيائها الظليلة، اعرف انك تحب فيروز وهي تغني لبيسان افياءك الجميلة. والذي يبعث فينا شعورا بالدفء كلما ازداد صقيع الغربة ويضفي علينا أحساسا فطريا لا يغادرنا لحظة.

هذه الأسرة أيها الصديق وهذا المدن وتلك القرى البعيدة والغريبة عنا، قرانا تعاني الغربة، الغربة مزروعة فينا حبا وقهرا ودماء مكحلا في عيون الصبايا،

لان قرانا ومدننا تعيش هناك في عمق الغربة، وفي بلاد لا نسمع في ليلها إلا نعيق الغربان وفي نهارها صوت الدماء وهي تسيل بدون توقف، للدماء هدير على الأرض كصوت الدبابة.

أتدري أيها الصديق أني هذه الليلة التي اجلس فيها وحيدا اعبث بذاكرتي وذاكرتك، ذكرياتنا ممزوجة برائحة الليمون والعمر المهدور والدم المسفوح.

قبل أسابيع ذهبنا في رحلة إلى تمثال الحرية، كانت الرحلة عربية ومن ولاية إلى ولاية أخرى وكان الباص هو وسيلة النقل التي أردناها. جلست متعبا على كرسي الباص انتظر مرور أكثر من سبع ساعات كانت تفصلني عن تمثال الحرية،اتدري أن تمثال الحرية عربي كان هدية من فرنسا لمصر مكانه في بور سعيد الا الاسكندرية ولان الملك فاروق اصر أن تكون الفتاة صاحبة التمثال عربية بلباسها وبلاصها وحتى عقد الورد الذي كان على صدرها كان عربيا رفض المثال طلبات الملك فاروق فقامت فرنسا بأهدائه لولاية فقيرة جدا كانت فقيرة هي ولاية نيويورك، لكنه تمثال من حجر فأين الحرية المليئة بالحياة، يا الهي كم كانت الرحلة طويلة حاولت فيها أن اقتل الوقت كعادتنا نقتل الوقت ونسرق الحب لكن محاولتي كانت فاشلة، أغمضت عيني وحولت جاهدا أن أعود إلى المخيم لكني فشلت، بكيت، بكيت كثيرا، تذكرت غربتنا التي امتدت سنوات طويلة وليست ساعات.

وعندما هبطنا وامتثلنا أمام التمثال وجدناه عظيما لكنه فارغ وصغير.

المطر في أمريكا شديد وغزير.

رفيقي في شقتي وغربتي فلسطيني جاء للدراسة لكنه قرر فجأة أن لا يدرس وان يعمل ليبني ثروة

كان صديقي كلما هطل المطر يصرخ بأعلى صوته حتى لو كان الوقت منتصف الليل فأنه يصرخ حتى يوقظني:

-انهض، مطر، مطر مطر.. انهض أيها السياب انهض.

كنا نخرج معا إلى شوارع المطر، كان صديقي يعتقد أن المطر يغسلنا من ذنوبنا ومعاصينا، وكان يقول أن المطر شيء مشترك بين الأمم.)

بعد استشهاد حامد الرمانة بأيام وصلني منه رسالة مختومة بخاتم بريد بيروت.

قال فيها:

(ان كل شهادات الدنيا وأوراقه وحضارته وأقلامه وحبره لا يساوي حجرا واحدا يدافع فيه مظلوم عن حقه وأرضه وشرفه.

لهذا قررت السفر إلى بيروت والالتحاق بالمقاتلين.

عندما هبطت من بحر بيروت، سجدت اقبل رمالها وميناءها الذي كنت ابحث عنه، ميناء بيروت قلب دفيء وحضن رؤوم.

وعندما قررت الحيل إلى بيروت دارت بي مخيلتي إلى شوارع بيروت وأحيائها وبحرها وكتابها وروائيها، بيروت مليئة برائحة الحبر والبحر والرصاص، هكذا كنا نعرف بيروت.

وعندما نزلت ارض بيروت عانقت الخضرة والماء والحرية، وعندما سرت في شوارعها رأيت بيروت الاجتياح والمقاومة، بيروت الهواء والنقاء والحضن الذي لم يرد طالبه، كل المعذبين كانون يجدون في حضن بيروت تفريغ الهم، وكانوا يبوحون بهمومهم لبيروت التي ما تعبت ولا ملت من سماع شكاوى المظلومين أو المقهورين والمشردين والعاشقين.

عندما ودعت المخيم إلى أمريكا كانت أخر دمعة رأيتها لامي وأخر عين رمقتني بابتسامة ودموع وداع كانت عين أمي. عندما قررت الرحيل ا لي بيروت لم أجد أي عين تذرف علي دمعا.

بعدها بحثت عن الدماء الممزوجة برائحة التراب في شوارع بيروت والمخطوط على حيطان صبرا وشاتيلا والفاكهاني. رأيت تاريخنا وغربتنا التي لا تنتهي مليئة بالشهداء والقتلى والأسرى في شوارع بيروت.

أتعرف أيها الصديق ذات صباح رأيت بويجيا في أول شارع الحمراء، صار صديقي، أرغمته على صداقتي حتى أظل أتذكرك واراك كل يوم حسام قرد المخيم ماسح الأحذية، ولصديقي البويجي وجه مليء بالطيبة كوجهك، كلكم معشر البويجية طيبون، كنت اجلس معه ساعات على رصيف الشارع الذي اتخذه عنوانا له، كعنوانك في قاع المدينة، أتذكر يوم كنت اهرب يوم الجمعة من صلاة الجمعة في مسجد المخيم وأزورك في زاويتك ا لمقدسة ونراقب المصلين وهم يخرجون من المسجد الكبير وأنت تتمنى لو أن ربع أحذية المصلين تأتيك يوم الجمعة لأصبحت غينا.

كان البويجي صديقي يحدثني عن بيروت وعن القتل والذبح في أزقتها ويحدثني عن عمن قتل في شوارعها، فهو يعرف كل المقتولين ويعرف كل القاتلين.

وأنت الم تكن هكذا في أيلول تعرف القاتل والمقتول، الم تكن تعرف الجميع؟

ختم رسالته معلنا فرحته لأنه تعلم استخدام السلاح وأصبح واحدا من المقاتلين.

عدت إلى رسالته الأولى وقرأت قصيدة كانت تحمل عنوان حجر اسود:

(حجر اسود

وحجر ابيض

وحجر اخضر

وحجر رشيد

وحجر ليس له لون

وحجر بلا طعم

وحجر بلا رائحة أو نوم

وحجر قلب

وقلب حجر

وقبة سجينة

ومسجد يحاصر الجنود

ومخيم يحاصر الجيوش

**

يحرقون القمح

والكتب

ويقتلون النهر

والحب

ويسرقون الزيت

والزيتون والأمل

ويذبحون الشيخ

والطفل

ونناشدهم الصلح والسلم

والأمن

ويحرقوننا سبعين مرة

ونسامحهم ألف مرة

وننتظر أمام الشاشات

وأمام المساجد والمعابد

نحتسي الخمر والجمر

اشربوا ماء النهر

وندخن الحشيش

وحليب الأطفال

وعظام اليتامى

ودموع الثكالى

ندخن ونضحك علينا

وندعوا

اكفنا يا رب شر ضحكتنا

وشر أمريكا

ونقتل القتل

ونسرق الحب

ونسجن النهر

والحجر

ونملاء مخازن

ذاكرتنا عجزا

ونضحك

وندخن الحشيش

ونشرب

دم الشهداء من أثداء النساء

ونلهو بضفائر الصبايا

ونقول:

الحمد لله

الذي أبقانا

وأبقى

لنا أمريكا

ونعلن

كل يوم

إننا نقتل الأمل

ونلعن الزمن

ونبكي

إننا عرب.)

بعد أن انصرف كل من كان على مقبرة المخيم جلست عند قبر حامد الرمانة ابكي، بكيت كثيرا حتى تعبت الدموع في عيوني ولم تتعب عيوني.

كنت دائما تبحث عن شجرة تصلك بفلسطين ، لم تكن تريد أن تكون مقطوعا من شجرة ، أنا ألان بعد موتك أصبحت إنسان بلا شجرة، أعيش بلا شجرة عائلة ومقطوع من كل أشجار الدنيا،كم بحثنا معا في حدائق الجيران المسيجة بالحجارة عن شجرة الرمان من أجلك أنت، وكم تعرضنا للضرب والشتم ولمطاردة الكلاب من اجل أن نحضر لك رمانة يا آكل الرمان، سيأكلك ألان الدود، سينتقم منك الدود سيثأر لكل حبات الرمان التي لا تعد ولا تحصى التي بلعتها بدون طحن.

دعاني حامد الرمانة إلى محاضرة في الجامعة بعنوان(إسرائيل وتهجير الفلسطينيين 1930 – 1948 بدأها المحاضر بقوله:

(بالعودة إلى تاريخ مؤسسي الحركة الصهيونية نجد أن كافة اقتراحاتهم وأفكارهم كانت تتجه نحو تحقيق الفكرة الصهيونية عبر إقامة دولة يهودية نقية تعتمد أساسا على إعادة التوزيع العرقي، حيث أن إقامة دولة يهودية في فلسطين يتطلب إفراغها من سكانها الأصليين وتهجيرهم إلى البلاد العربية لإفساح المجال أمام استيطان المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا الشرقية ومن مختلف أنحاء العالم.)

وأضاف المحاضر في محاضرته التي امتلأ بها مدرج كلية الآداب الكبير:

(أن كافة الاحاديث والافكار التي طرحها اباء الحركة الصهيونية امثال تيودور هرتسل ويسرائيل زانغويل ونحمان سيركين وناحوم سوكولوف وحاييم وايزمان وزئيف جابوتسكي ودافيد بن غوريون وغيرهم من الاباء تدعو إلى العمل على تأسيس دولة تنتمي اغلبيتها الساحقة إلى عنصر واحد هو العنصر اليهودي النقي وهذا يعتمد بالاساس على طرد السكان العرب الفلسطينين.)

وقال:(أن زانغويل القى خطابا في العام 1905 في مانشسر في بريطانيا بعد جولة له قام بها في العام1897 في فلسطين اعلن أن ضرورة طرد السكان العرب الذين تزيد كثافتهم في القدس كثافة امريكا مرتين. وبعث جابوتنسكي برسالة إلى صديق جاء فيها أن البارون اليهودي ادبوند جيمي روتشيلد يطالب بان تكون فلسطين يهودية بالكامل وهو على استعداد لتقديم المال للسكان العرب لتمكينهم من شراء ارض اخرى لكن شرط مغادرة فلسطين .

وقال آشر غينز برغ: سيسود شعبنا اليهودي على الشعوب الاخرى، أن اسرائيل هي الامة العليا.

ويتطرق المحاضر إلى اهم الخطط والمشاريع التي طرحت لترحيل العرب الفلسطينين قسريا مشيرا إلى خطة وازمان في العام1930 عندما كان يشغل منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية حيث قدم خلال محادثاته مع مسؤولين ووزراء بريطانينن اقتراحا يدعو إلى ترحيل السكان العرب من فلسطين وقد جاء هذا الاقتراح اثر الاشتباكات العربية اليهودية سنة 1929 خلال ثورة البراق.

واشار إلى خطة سويسكين عام 1937 حيث دعا إلى ترحيل السكان قسريا بعد اقتلاعهم من الارض وخطة جابوتنسكي عام 1937 الاب الروحي لحركةحيروت اليمينة واستاذ مناحيم بيقين واسحق شامير وكان شعاره اذا لم نقضي علىالعرب قضوا علينا.

كنت مشغولا بذهني خارج القاعة وكان حامد مستمعا جيدا، كأنه في امتحان، كنت احسده على حسن الاصغاء والوم نفسي على الشرود.

شعر حامد أني خرجت بفكري خارج القاعة فلكزني بيده وعندما عدت إلى اجواء المحاضرة كان المحاضر وصل إلى ترحيل العام 1948 حيث قال:

(بقيت كافة المشاريع والمخططات الصهيونية لترحيل الفلسطينين من وطنهم مجرد افكار حتى يوم تجسيدها عبر حرب1948 حيث تم اصدار توجيهات إلى كافة الوحدات العسكرية الصهوينية تامرهم بترحيل السكان العرب عبر استخدام الوسائل العسكرية وتنفيذ المجازر بحق ابناء الشعب ا لفلسطيني.

فلد قال دافيد بن غوريون زعيم الهاغاناة في احدى برقياته إلى جنود وضباط اللواء التاسع: اسمعي يا شعوب المقهورين وليمتلك ا لخوف قلوب الفلسطينيين جراء افعالنا وليرتعب من هولنا صناديد البتراء وليتطاير سكان كنعان ويخيم على اسماعهم الذعر والرهبة، فجبروت بطشكم جمدهم كالحجارة، عندئذ سوف ينتقل شعب الله المختار إلى حيث اراد الله.

وقد عبر عن الترحيل عبر العنف احد كبار المسؤولين في الوكالة اليهودية هو دافيد وانسي حيث قال: من الواجب عدم ترك اية قرية او قبيلة دون تدميرها.

وقال بيغن معلقا على نتائج مجزرة دير ياسين : لولا الانتصار الذي احرزناه في معركة دير ياسين لما كان هناك مجال لوجود اسرائيل.)

عدت قليلا إلى رجاء ومذكراتها ، كانت رجاء من قرية اسمها الطنطورة الساحلية والتي راح ضحية الارهاب الصهيوني فيها حوالي 200 شخص من مختلف الاعمار تقع على شاطيء البحر إلى الجنوب من حيفا على بعد 24 كم.

كانت رجاء عندما تريد أن تبكي تصنع طوقوسا خاصة بالبكاء، وكانت تقول:

- نحن الفلسطينين بكاؤنا يختلف عن بكاء الاخرين.
- وكانت تحضر المناديل الورقية وتضع كأس الماء الزجاجي امامها وتصيح:
- انا طنطورية، وكل طنطوري لا بد مقتول.

وتبكي ، تبكي حتى تتساقط الدموع من عينها الزرقاوتان كمطر كانون وتبتل كل المناديل الورقية.

واورد المحاضر بعد أن عدت بذهني اليه شهادة لاحد العناصر المسلحة الصهيونية الذي شارك في احتلال قرية الدوايمة الفلسطينية عام 1948

قال: قتلنا حوالي مئة عربي ، اطفال ونساء ، قمنا بتحطيم رؤوس الاطفال بالعصي، ولم يبق منزل واحد خال من الجثث، اما الرجال فوضعناهم في منازل خلت من الماء والطعام وقمنا بنسف المنازل على رؤوس من فيها.
وكان الجنود والضباط يتباهون باغتصاب العربيات قبل رميهن بالرصاص.
واشار المحاضر إلى استمرار الدعوة إلى ا لقتل ففي عام 1965 عبر مناحيم بيغن عن نفسيته العنصرية حيث قال: ينبغي عليكم ايها الاسرائيلوين أن لا تلينوا ابدا عندما تقتلون اعداءكم ، ينغي الا تأخذكم بهم رحمة حتى ندمر ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني على انقاضها حضارتنا الخاصة.**
(الكاتب صلاح عبد الله
باحث لبناني في الشؤون الإسرائيلية)
**
15
لم يخرجني من حزني على حامد الرمانة الا رسالة جاءتني من استاذ اللغة العربية في مدرسة المخيم نسيم ابو فانوس اخبرني فيها انه استقال من التدريس والتحق بمهنة المتاعب في احدى الدول الخليجية وطلب مني الالتحاق به حيث يوجد فرص عمل بدخل ممتاز.
كان الخليج يغلي ذهبا بالنفط، وكان محط انظار الطفرانين ، وكان راتب المعلم لا يتجاوز السبعين دينارا فكيف اذا تجاوز السبع مائة دينارا في ارض النفط.
حملت معي صورة اختي بيسان ولوحة بنت المقبرة وغادرت المخيم مغتربا عن غربتي االتي اعيش فيها.
كان المخيم يبكي خلفي وكنت اودع شوارعه وازقته التي لم العب فيها بما يكفي في طفولتي ، غادرت المخيم بعد أن اوصيت الجميع بصندوقي الاسود خيرا واوصيتهم أن مت مغتربا أن يدفنوا صندوقي ولوحة بنت المقبرة معي في قبر واحد وان يحفروا قبري قرب قبر حامد الرمانة.
هربت بي سيارة الاجرة مسرعة من دموعي وخرجت من ازقة المخيم تاركة وراءها دموع لا تتوقف .

كانت الحافلة تقطع بنا الصحراء مسرعة تلتهم الرمال مسرعة بنا. ترمينا خارج غربتنا وتدخل بنا الى غربتها.

شكلت انت وعمان وبيسان حلما كبيرا منذ طفولتي، بيسان مدينتي وبيسان شقيقتي وعمان العاصمة التي لم يكن ابي يصطحبني اليها كلما هبط من المخيم ولكني بعد قليل من الايام اصبحت احد معالمها، وانت بيساني الضائعة التي كنت ومازلت ابحث عنها وعاصمتي التي ما هبطت اليها الا لكي اعرفك.

كانت الحافلة ما تزال تواصل هربها من الرمال في بطن الصحراء، الصحراء حيث لا ماء ولا هواء ولا حتى وجه حسن، حتى السراب اختفى. محاصرين بالرمال من كل الجهات، نتسلى احيانا بعد قطعان الابل التي تقطع الشارع على مهل فتوقف الشاحنة احتراما لسفن الصحراء وهي تقطع الطريق غير مبالية بنا ركاب الحافلة الذين تقتلنا حرارة الصحراء التي ما تعودناها يوما، كان منظر الرمال في الصحراء يعيدني الى السيل في عمان، نهر عمان الوحيد.

عندما مضى اول شهر على عملي في مسح الاحذية اصبحت اتعرف على عمان وعلى معالمها، فنشأت بيني وبين السيل علاقة حب واحترام، احترمه فيحبني وصرت لا استطيع دخول عمان او مغادرتها دون أن اتعمد في السيل، واغسل جسدي من عرق النهار. كنت استرق النظر الى النساء اللواتي يحضرن الى السيل ويغسلن الملابس بمياهه، كنت اجلس بالقرب منهن واسترق النظر الى سيقانهن ، كنت اتلذذ بمنظر ثيابهن المبلولة بمياه السيل والملتصقة باجسادهن والتي تظهر مفاتنهن امامي وحدي، فالرجال لا يستطيعون الاقتراب من مكان النساء ادبا واخلاقا اما انا فأني طفل غير مشكوك في نظراته.

لم اكن شديد الاعتزاز بمهنتي كماسح احذية، وان لم اكن اكرهها عيبا، لكني كنت شديد الاعتزاز بعمانيتي كما هي بيسانيتي.

عمان لم تكن خياري ومهنتي لم تكن خياري الاول في الحياة، في الواقع هي ليست خيارا لطفل مازال يذهب صباحا الى طرقات مدارس البنات من اجل ابتسامة من طالبة بمريول نيلي.

لو سألت في وقتها عن حلمي بمهنتي التي احب ان اختارها لمستقبلي لقلت مدرس او دكتور او فنان اما ماسح احذية فانها لم تكن ضمن الاحلام.

صحيح أني لم اكن احلم باكثر من القردنةوالشيطنةفي ازقة المخيم وتسلق اسوار حدائق الجيران وسرقة الرمان لحامد او التزحلق على حواف وجوانب الوادي، اما ماسح احذية فلم تكن تخطر ببال اشقى واقرد اطفال المخيم.

لا تفهمي أني كنت او مازلت اعاني من اية احقاد او كره للمجتمع الذي جعلني ماسح احذية، لا انا اعتز ولو قليلا بمهنتي فيكفيها شرفا انها عرفتني بعمان وجعلتني احد معالمها ويكفي مهنتي اعتزازا أني عرفتك من خلالها.

طالت المسافة في الصحراء الرملية، قررت أن اقتل الوقت الطويل بالقراءة ، اخرجت كتاب هو مجموعة قصصية لكاتبة احبها، هي بسمة النسور اعشق هذه القاصة الجميلة التي ارى فيها سيدة من نوع خاص. احبها لانها تجعلني اعيش في كتاباتها كل لحظاتي بدءا من بيسان اختي حتى بنت المقبرة عشيقتي، هذه اول مرة اتلفظ بهذه الكلمة، لم اكن اجروء على أن اقول انك عشيقتي حتى وانت بعيدة عني.

لا ادري من هي الاجمل انت ام بسمة النسور، انما احسك تشبهينها في كل قصصها.

-لم اقراء لها.

- ستحبينها، وستحبين كتاباتها وابداعها، تجربتها رائعة.

صحوت من قراءة القصة على صوت سائق الحافلة.

- سنتوقف قليلا ، نتزود بالديزل والماء، يوجد استراحة ، اذا اردتم تناول وجبة طعام خفيفة ومشروبات باردة، لن نطيل التوقف ، نصف ساعة فقط. الرجاء الالتزام ، نصف ساعة فقط.

كانت اجمل نصف ساعة واروع استراحة، لقد التصقت اجسادنا بالمقاعد، العرق يتصبب منا ومن ملابسنا . زجاجات الماء التي بحوزتنا اصبحت مياه بركانية.

جلست وحدي، اخرجت صورتك، او رسمك، وتناولت سندويشه وعلبة كولا ، كانت الاستراحة بسيطة جدا تقبع بين الرمال وتجاورها شقيقتها محطة الوقود.

كانت الصحراء في الليل عيون سوداء تتلون باللون البني او العسلي كلما لمع نجم فيها، كنت ارى في ليل الصحراء الغريب عني عيونك، كانت اجمل ما في الصحراء.

كنت خلال السنوات طويلة الغربة قصيرة الزمن احاول جهدي أن استعين بك او برسمك على غربتي التي كنت اعيشها والتي كانت استمرار لغربتي في ازقة المخيم او داخل صندوقي الاسود.

لم يستطع الاستاذ نسيم ابو فانوس وزوجته الفاضلة تخفيف غربتي، كانت زوجته نعم الام في الغربة لكن يتم قلبي منذ بيسان لا تعوضه محبة الدنيا كلها.

ظلت قدماي تبحث عنك في شوارع الغربة وبين رمال الصحراء، كنت اتوقع رؤيتك في الغربة، تعملين كغيرك من النساء الفلسطينيات المتغربات لكني لم اجدك ، كتبت عنك الكثير أناشدك اذا كنت تعيشين في غربتي أن تعودي ، لكن صوتي كان يضيع صدى بين ذرات الرمال التي رفضتنا وطردتنا كأننا مرض معدي يجب التخلص منه.

اذكر يوم تخلص مدير مدرستي في المخيم مني كان يوم السعد بالنسبة له وكذلك ذرات الرمال المعجونة بدموعنا وقطرات النفط طردتنا فرحة بالتخلص منا.

لم تطل غربتي في الخليج كثيرا، عدت الى عمان لابحث عنك في ليله الذي يشبه عينيك لكني لم اجدك، عدت كما ذهبت مفرغ الجيوب انتظر اعلان الصحف من اجل الحصول على التعويضات .

كانت نشأت بيني وبين بحار الرمال علاقة من نوع خاص، حيث صرت احرص على مداعبتها ليلا وباستمرار فأنا لا اجروء على ممارسة الحب معها نهارا، فالحب لا بد أن يكون ليلا.

في الشتاء كنت افقد هذه المتعة حيث كان عالمي يمتد ما بين سكني وبحر الرمال، الليل في الصحراء صافية كعينيك ، كنت اعشق الصحراء في الليل لامتلائها بالحزن الفلسطيني ، كل فلسطيني كان يبوح كل

اهاته وآلامه واحزانه للصحراء لانها كتاب مفتوح للاسرار، لكنها خانته وكشفت كل اسراره للغرباء فطردوه منها.

في معرضي الاول والوحيد في غربتي عرضت وقتها اكثر من عشرين لوحة كانت سيدتها لوحة بنت المقبرة، جاء الى المعرض عدد كبير من المغتربين ومن ابناء البلد ، كتب عن المعرض الكثير وخصوا بالكتابة لوحة بنت المقبرة التي رفضت بيعها باي ثمن .

وقفت امام لوحة بنت المقبرة ، كانت سيدة جميلة القوام ،رائعة بوقفتها. اطالت النظر اليها كانت جميله جدا، جالت في المعرض بصورة سريعة كمن يحمل على كتفه هما ويريد التخلص منه ثم عادت الى سيدة المعرض لوحة بنت المقبرة تفحصتها بعيني خبير وناقد فني.

كنت احب كل من يحب لوحة بنت المقبرة ، اسرعت اليها.

قالت:

- امل شاهين مدرسة في ثانوية البنات، مصرية من اصل فلسطيني، يعني غزاوية.
- انا حسام محمود صحفي اردني من اصل فلسطيني بيساني.

ضحكنا ، ابدت اعجابها بالمعرض وخصت لوحة بنت المقبرة .افترقنا على امل اللقاء.

كانت امرأة مطلقة تركت زوجها وتسكن مع امها وابنائها الاربعة في القاهرة، تغربت من اجل تحسين وضع الاسرة المادي ، كانت جميلة جدا. هاتفتها مرة أريد أن نلتقي وفعلا كان اللقاء على شاطئ البحر ، لا ادري اانا شيطان ام أن شيطاني استغل وحدتها. حاولت أن ابدي لها اعجابي بجمالها ، قلت لها:

-عيونك اجمل ما في الوجود

قالت لي:

- الغربة تدفعنا الى تحمل كل شيء
- لكنك تحتاجين الى انس
- صور اطفالي هي انسي في غربتي وعبادتي لربي خير انيس، انا اقرأ القرآن كثيرا واصلي كثيرا.

كنت قرد المخيم ، وفي هذه اللحظات اصبحت ، ماذا اصبحت لا ادري ماذا اسمي نفسي لعن الله شيطاني.

صمت قليلا وانا اطرق خجلا في الارض

فهمت صمتي قالت:

- انت فنان مرهف ،لا تسمح للغربة أن تقتلك.
- انا اسف
- لا تعتذر ، لم ترتكب اثما، في عينيك محبة كبيرة حافظ عليها ولا تدعها تهرب منك.

نهضت وقبل أن تودعني قالت:

- مكتوب على كل حامل لحب فلسطين الغربة فلنتحملها .

سارت قليلا وقالت:

-الله معك.

**

16

في اليوم الثاني من طردي مع من طردت من ارض النفط وذرات الرمال هبطت مسرعا الى قاع عمان احتضن شوارعها واقبل ارصفتها وابحث بين عيون نسائها عن عينين لا تشبهان العيون، عينان فيهما ليل اسود طويل تنيره النجوم في ارض الصحراء، زرت كل ركن كنت فيه في يوم من ايام رفقتي لصندوقي الاسود، وتجولت في الاماكن التي كنا نسير فيها طفلين احمل على كتفي صندوقي الاسود وتحملين على كاهلك دموع الدنيا واحزانها ، حتى باب المسجد الحسيني زرته عساي اجد فتاة تجلس هناك تتسول بضعة قروش اسألها عنك واسألها أن كانت فتاة عيونها مليئة بالحيرة جاءت اليها تسأل عني او عن رجاء.

فجأة خطر ببالي زيارة سوق السكر، لا ادري لماذا قررت الزيارة، اهو البحث عن ذلك التاجر وتسول احدى بناته، ام الحنين لمكان عملت فيه وكدت افقد فيه احدى الفقرات من عمودي الفقري .

رجعت الى تاجر السكر، مضت خمسة عشر عاما اكثر قليلا او اقل قليلا لم اره فيها، دخلت اليه فوجدته هرم وازدادت سنواته ، لم يعرفني

فالطفل عندما يكبر تتغير ملامحه اما هو فانه باستثناء بعض التجاعيد وتغير لون الشوارب من الاسود الى الابيض فانه ما زال هو نفسه.

سلمت عليه فرد السلام، جلست بقربه فتبسم بابتسامة التاجر، لكنه لم يعرفني سألته:

-هل عرفتني

اجاب بدبلوماسية التاجر:

- بلا صغره لا، انسان كريم..عدم المؤاخذة السن والعمر فعل بذاكرتي مفعوله واخذ حقه مني.

تبسمت له وقلت:

-ارجع الى سنوات طويلة الى طفل حكيت له حكايتك وحكاية امك الكرمية.

انهيت كلامي، وتركته في حيرة يحك ذاكرته القديمة، مددت له يدي، وفتحت له ما بين اصابعي وصرخ:

- حسام، طفل الصندوق، حسام البويجي.

عرفني من اللون الاسود الذي ما زال عالقا بين اصابعي.

- نعم انا حسام طفل الملح.
- اما زلت تذكر كيس الملح الذي سقط عن ظهرك.
- لا انسى شيئا.
- نهض من مقعده واذ بظهر تقوس حضنني وقال:
- كيف تقطعني ..الا تعز عليك صداقتنا؟
- لم اكن في البلد
- جلسنا مقابل بعضنا وسألته:
- وانت ماذا حل بك وبأسرتك وكيف هي امور تجارتك.

شعرت بدمعة تحاول النزول لكنه منعها وقال:

- توفيت زوجتي وتزوجت جميع بناتي.
- سالته بعد أن قطع علي ا فكاري وامنياتي بالظفر باحدى بناته:
- وامك السيدة الكرمية؟

- لم استطع تحقيق امنيتها بدفن جسدها الطاهر قرب زوجها في طول كرم فدفناها في عمان.

صمت قليلا ثم سأل:

-وانت ماذا تعمل الان؟

- صحفي.

حدثني كثير عن اموره وعن زوجته الثاني وحدثني عن سوق السكر والكساد الذي اصاب التجارة وتراجع الوضع الاقتصادي في البلد ، ثم نهض وسار ببط الى احد الصناديق في زاوية من متجره واخرج منه مجموعة اوراق وقال لي:

- هذه مجموعة اوراق كانت لامي، تصلح أن تكون في كتاب او تنشر في جريدة حتى يعرف الناس افكار عدونا من ضمنها وصايا الحركةالصهيونية العشر الوصايا وليست البروتوكولات.

كانت خطواتي الراجعة الى المخيم ثقيلة، عدت سيرا على الاقدام ، كانت خطواتي الى المخيم ضعيفة تزاول مهنة الهزال كلما قطعت شارعا باتجاه المخيم، جبل عمان، وجبل نزال الذي كان ذات ايام يعاني من اطراف جرداء مخيفة فأصبح الان غابة من الاسمنت الفاخر.

دخلت غرفتي او الغرفة التي كانت لي وجلست بالقرب من صندوقي الاسود، لم اخلع ملابسي وحتى حذائي اللامع لم احرر قدماي التعبتان منه واخرجت اوراق السيدة الكرمية وقرأت فيها:

(انا من طول كرم وزوجي من قرية من قرى شمال الاردن ، تزوجنا في طول كرم وعشنا في عمان، كانت الجارات يطلقن علي لقب الكرمية، جاءت الكرمية وذهبت الكرمية، كنا عند الكرمية وذاهبات الى بيت الكرمية.)

قلبت الصفحات التي خطتها بيدها، كان خط الكرمية جميلا جدا يدل على جمالها ودقتها.

كتبت:

(احب العودة الى طول كرم، لكنها ممنوعة من القدوم الي نعم مدينتي طول كرم ممنوعة من الحضور اليّ حتى في احلامي، اصبحت اعيش لاطفالي بعد موت زوجي ، حتى عندما قالوا لنا أن طول كرم ستعود

كغيرها من القرى والمدن الفلسطينية شككت بنفسي أن اعود، فانا لاولادي واولادي الي.)

وقرأت في الصفحات الاخيرة كلام كثير لكن لفت انتباهي كلمات عني..نعم كتبت في الصفحة الخاصة بي:

(اخبرني ابني اليوم عن قصة طفل من اطفال المخيمات ، طفل يعمل ماسحا للاحذية من اجل أن يعيل اسرته ، بكيت كثير لحال اطفال المخيمات، تمنيت لو نستطيع مساعدتهم لكنا لا نستطيع مساعدة انفسنا فكيف نساعد الاخرين)

اغلقت دفاتر السيدة الكرمية الخاصة ،الوقت دخل في منتصف الليل، كانت المرة الاولى في حياتي اسمع عن الوصايا العشر لليهود، كنت اسمع واقراء عن بروتوكولات حكماء صهيون، كانت هذه الوصايا التي وضعها اباء الحركة الصهيونية.

لا ادري كيف حصلت عليها هذه السيدة الكرمية لكنها كانت رائعة ومهمة بالنسبة لي وهي تختلف عن الوصايا التي وردت في الكتب الدينية لليهود والتي كتبها الله كما تدعي التوراة على لوحين من حجر وذلك قبل حوالي ثلاثة الاف وخمسمائة سنة في رحلة خروج القبائل العبرانية من مصر الى فلسطين. عندما صعد النبي موسى عليه السلام الى طور سيناء ليكلمه الله ويختلي به اربعين ليلة.

هذه الوصايا التي احتفظت بها السيدة الكرمية تختلف نوعيا وحجما وضعها نفر من اليهود بعد حوالي خمسة وثلاثين قرنا وشكلت برنامجا لحركة سياسية سموها الحركة الصهيونية وفي حين عصى عبرانيو موسى وصايا الله وعبدو العجل وكسر موسى الالواح خضع صهيونيو الزمن المعاصر لوصايا قادتهم ونجحوا في الزام حركتهم بهذه الوصايا الزاما حرفيا راسخا.

قرأت الوصية الاولى والتي كانت حول اليهودية قومية وليست مجرد ديانة،

وكان يهود اوروبا الشرقية عانوا من مآسي الفقر والاضطهاد بقدر ما تنعم اخوان لهم في اوروبا الغربية. ولهذه الاسباب قاموا بتشكيل جمعيات احباء صهيون حولها ثيودور هرتزل المحامي والصحافي اليهودي

الى عمل سياسي عقائدي دولي وحتى يتمكن من ذلك كان لا بد من الانتقال باليهودية من حال الدين ا لى حال الامة حيث قال اليهود شعب وليس مجرد طائفة ’ واليهودية هوية قومية وليست مجرد مذهب ديني وعلى اليهود كل اليهود واينما كانو والى اية جنسية او دولة او طبقة او ثقافة انتموا أن يعملوا معا كابناء شعب واحد لمصلحة قضية واحدة.

ومن هذه الوصية الصهيونية هي الوجه القوي السياسي لليهود واليهودية وتعتبر هذه الوصية هي القاعدة الاساسية الكبرى والي اكدت أن اليهودية قومية وشعب مختار مميز وممتاز ، هوية فوقية دونها الهويات الاخرى في العالم كله.

**

17

قالت لي في اخر مكالمة هاتفية بعد أن انفصلنا وقبل موتها بايام قليلة:

-(لقد فكرت كثيرا فبك أن امنحك حق ذكرياتي المدونة في اوراقي ورسائلي التي كانت سابقا تخصني وحدي واصبحت تخصك وحدك.)

وكتبت في ورقة منفصلة:

-(ذكرياتي وأحرفي التي ستقراءها منذ أن كنت طفلة تتسول قوت يومها امام المسجد الحسيني ، كنت انت وقتها تأتي اليّ لتسألني عن بنت المقبرة، كنت تعشقها جدا، وكنت اموت قهرا من سؤالك.

كانت تزورني باستمرار وكنت كلما سألتني عنها انكر هذه الزيارات، لا اخبرك عنها، كنت اغار منها. انا اعرف انك تحبها جدا،وانا اعلم علم اليقين بل عين ا ليقين أن الحب الاول مثل الحصبة تترك اثارا واضحة لا تنسى ولا تختفي.

اغار منها وهي بعيدة عني وعنك، كنت صباح مساء تسألني عنها، وكنت اموت قهرا وغيرة كلما رأيتك تبحث عنها ممسكا بيدك غصن ياسمين.)

وكتبت في مذكراتها:

-(كان يوم اسود، اسود ايام حياتي ذلك اليوم الذي التقيت فيه بحسام الصحفي، لكنه سيبقى مهما طال به الزمن وكبر واصبح مهما اصبح، سيظل في نظري ونظر ابناء الحارة قرد المخيم ماسح الاحذية البويجي .)

كانت امها من سكان قرية الطنطورة وتحمل في ذاكرتها صورة تلك الاحداث الرهيبة التي اوقعها الصهاينة في حق سكان قريتها.

قالت لي ذات مرة:

-زرعت امي في قلبي الكره، كره كل شي وماتت، تركتني اصارع الدنيا وشرورها واشرارها.

وقالت:

- قتل الصهاينة من لواء الكسندروني والكتيبة 33 التي كانت تدعى كتيبة السبت قتلوا كل اقارب امي في قرية الطنطورة.

وقالت:

- زرعت امي في رأسي ما شاهدته وكيف ذبح ابناء عائلتها امام عينيها ، لكن ما ذنبي انا، انا أريد أن اعيش.

قالت لها امها الطنطورية:

0اخذونا الى مقبرة القرية وهناك اوقفونا في صفوف ثم اخذوا الكبار وحتى عدد من الصغار عشرة عشرة واقتادوهم بالقرب من شجيرات الصبار واطلقوا عليهم النار.)

وكانت تقول أن امها قالت لها:

(هؤلاء الجنود الذين لن انسى ملامح وجوههم ما حييت ، بدوا لي مثل شياطين قاتلة، كنت واثقة بأنها اللحظات الاخيرة في حياتي، وانهم سيأتون بين لحظة واخرى ليأخذوني ايضا ويطلقوا عليّ النار.

وتقول أن امها اخبرتهاان المذبحة التي اوقعها جنود كتيبة السبت اليهودية خلفت اكثر من 90 قتيلا دفنوا في حفرة كبيرة.

واخبرتها امها أن احد الناجين اخبرهم أن اليهود جمعونا بالقرب من شاطئ البحر ، الرجال على حده والنساء على حده ووضع الاطفال على حده بعد ذلك انتقوا سبعة من الرجال واحضروهم الى مكان قريب من مسجد القرية وهناك اطلقوا عليهم النار، ثم عادوا واقتادوا مجموعة اخرى.

قالت لي يوما وانا اجلس قبالتها في ساحة المسجد الحسيني، كنت اتحسر على كل حذاء يمر من امامي دون أن يكون لفرشاتي نصيب فيه، كانت الاحذية كثيرة لكن اغلبها كان تالفا ولا يستحق التلميع، كانت

القروش تتساقط في حضنها بينما صندوقي لم يجد من يضع فيه فلسا واحدا، قالت لي:

- انت تبحث عن وهم.. بنت المقبرة عادت لاهلها في المخيم ولن تراها.
- لم احرك ساكنا.

قالت:

- ما رأيك أن نحب بعضنا.

فتحت عيني، حاولت أن اقول شيئا لكن احرفي تجمدت في فمي مندهشة.

قالت:

- لما تستغرب، أنت تبحث عن وهم بينما أنا حقيقة ماثلة أمامك دائما، أنا وأنت طفلين شبه مشردين نعيش في مخيم واحد وظروفنا متشابهة ونعمل من اجل عائلاتنا فلماذا لا نكون لبعضنا.

قلت لها:

- من أين تعلمت كل هذا الكلام؟

قالت :

- سمعت احدهم يقول لحبيبته هذه الكلمات ، سمعته يقول لها أنت تبحثين عن وهم وأنا حقيقة فقبلت به ووضعت يدها في يده وسارا فحفظت كلماته وقلتها لك اليوم.

كانت من حارة غير حارتنا في المخيم، وكنا نلتقي أنا وهي خارج اسوار الحارة ، أول مرة اتفقنا على اللقاء كانت خارج المخيم، سرنا معا، أردناه موعدا غراميا مع إننا نلتقي كل يوم في قاع المدينة الا أن لقاء العشاق الملئ بالخوف والترقب يكون أجمل، سرنا معا حتى وصلنا مرتفع يطل على المخيم ،كان هناك بعض الشجيرات ، جلسنا تحت إحداها، صمتنا كعاشقين، كنا في بداية البلوغ، كانت الأنوثة بدأت تعلم على جسدها وظهر صدرها نافرا، يحاول التخلص من ملابسها.

مرة ثانية واعدتها ليلا، كنت اتقد شهوة ولكني كنت أخافها، جلسنا تحت سور منزلهم وحيدين، كان الوقت بداية الشتاء وكانت شوارع المخيم وأزقته الضيقة خالية إلا منا.

وقتها لم أكن اعرف ماذا يعني صدر المرأة وان كنت أتوق له، كنت أراه متدليا من داخل ثوب أمي الأسود عندما كانت تضع أخي الصغير، لم أكن اعرف أن للصدر فوائد أخرى إلا عندما قالت لي رجاء:

-(امسكه)

وقتها شعرت برجولتي وشعرت هي بأنوثتها.

**

18

صحوت على صوت فيروز تغني خذوني الى بيسان، كنت تلك الليلة سهرت حتى الفجر، لم اكن اصلي في سابق ايامي لكني في هذه الليلة بعد أن سمعت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، كان صوته جميلا، اغتسلت وصليت الفجر ونمت، لم يطل وقت نومي، فصوت فيروز عندما تغني لبيسان اشعر بالدماء تجري بسرعة فائقة في كل انحاء جسدي ، واعود طفلا تصنع له شقيقته بيسان لفة خبز مدهونة بالزيت والزعتر، ووالده يستمع الى فيروز وهذا الطفل يحمل على كتفه صندوقه الاسود ويتجه الى موقف الباصات هابطا الى قاع المدينة ليجعل احذية الرجال تبتسم فرحة.

اعود طفلا كلما سمعت فيروز تشدو ليسان، نهضت باحثا عن مصدر الصوت واذ به من شباك الجيران، وقفت استمع لها حتى انهت اغنيتها وصنعت قهوتي السادة واشعلت يسجارتي وعدت الى اوراق السيدة الكرمية.

بحثت عن الوصية الثانية للحركة الصهيونية، كانت تتحدث عن الهدف الاسمى للصهيونية هو في تخليص اليهود من الوضع السيئ الذي يعيشونه فيما يسمى بالشتات عن طريق تهجيرهم من حيث يقيمون غير مرحب بهم الى مكان آمن .

ورأى هرتزل قبيل انشاء المنظمة الصهيونية العالمية وفي سنواتها الاولى أن يحول حركة الهجرة بالتسلل الى فلسطين والتي لا تليق بعودة اليهود كما كان يدعي الى هجرة جماعية علنية ورسمية ولتحقيقها حاول الاتصال بالسلطان عبد الحميد مرات عدة عبر بعض كبار

رجـالات الدولـة العثمانيـة وبعـض اصـدقائها ومستشـاريها لكـن هـذه المحاولات باءت بالفشل.

واكتفـت الورقـة بـالكلام عـن الوصـية الثانيـة للصـهيونية بضـرورة تهجيـر اليهود الى فلسطين وظلت الهجرة قاعـدة اساسـية للنشـاط الصـهيوني طيلة قرن من الـزمن حيـث بـدأت فـي العقـد التاسـع مـن القـرن التاسـع عشر وسميت بالعالية الاولى والثانية وتعني العالية الصعود الى اعلـى، أي الهجرة الى جبل صهيون وهو رمز الهجرة الى فلسطين.

وفي جزء اخر من الاوراق كتب

(وما دام اليهود امة مميزة وممتازة وهـي الوصـية الاولـى ومـا دام حالهـا في ا لشـتات مرفوضـا ولا يعـالج الا بـالهجرة فـان ذلـك يفتـرض ويتوجـب انشاء وطن قومي للهيود في مكان ما من العالم بحيث يلتقون فـي ظلـه وتحت سقفه.

وقد كان هرتزل عمليا لم يكن يطالب بفلسطين بقدر ما كان يطالب بوطن قومي في مكان ما.)

وفي اخر الورقة كتب:

(وحتى تتحقـق الوصـية الثالثـة مـن الوصـايا العشـر لمـؤتمر بـازل 1897 بانشاء وطن قومي لليهـود فـي فلسـطين كـان لا بـد مـن تطبيـق وصـية رابعة وهي الحصول على رعاية دولية لهذا المشروع وذلك الـوطن الـذي يؤول المشروع الى اقامته.)

وتقول :

(سبق وان رأينا كيف حول هرتزل القلق اليهودي الـى مسـألة سياسـية وحول المسألة السياسية الى قضـية دوليـة. وكانـت الحركـة الصـهيونية هـي الجسـر الـذي جـرت فوقـه هـذه النقلـة النوعيـة ويعـود ذلـك الـى شخصية هرتزل وطبيعة اسلوبه فـي التخطـيط والتنفيـذ أي فـي التـأمر، فقد كان متآمرا خبيثا يعرف من اين تؤكل الكتـف ويخطـئ مـن ينظـر اليـه كرجل مبادئ وعالم نظريات ومصلح اجتماعي ومفكر سياسي.

توجه هرتزل بعد فشله مع السلطان عبد الحميـد الـى التـرويج لبضـاعته فـي العواصـم الاوروبيـة الكبـرى وان يبيعهـا لمـن يـدفع اكثـر ، ولـم تكـن البضاعة غير تحقيق الحلم الصهيوني بانشاء وطن قومي او دولة لليهـود

في فلسطين مقابل الالتزام لتلك العاصمة بتقديم الطاعة أي بمنحها مركزا مميزا وقاعدة عمل واتصال دون الدول الاخرى.

وقبل أن يموت هرتزل وصل الى قناعة أن بريطانيا هي اقرب تلك القوى لاصدار البراءة المنشودة كما كان يسميها.

وبعد عشر سنوات اثمرت الجهود بصدور وعد بلفور في الثاني من نوفمبر1917 .

وبعد أن دخلت امريكا الحرب العالمية الثانية وما بعدها بقوة وفرضت نفسها اتجهت البوصلة الصهيونية من الاتجاه نحو لندن غربا الى الاتجاه نحو واشنطن.

واذا كان وعد بلفور هو رمز التحالف الشيطاني بين الصهيونية والاستعمار البريطاني فان مقررات بلتمور في ايار1942 أي بعد 25 سنة رمزت بدورها الى تحالف شيطاني اخر صهيوني امريكي امبريالي.

وفي ضوء هذه الحماية تصرف الصهيونيون في محاولتهم لتنفيذ الوصية الخامسة وهي التوسع.

امي امرأة طاعنة في السن ومنذ أن عرفتها وانا اراها بثوبها الاسود، حتى بعد أن تزوج جميع الاشقاء والشقيقات، وتوسعنا في بيتنا بعد أن توسعت علينا الدنيا لكنها ما تزال تلبس ثوبها الاسود.

دخلت امي الى غرفتي وانا اعيش مع اوراق السيدة الكرمية، دخلت امي تجر جسدها جرا وربما تجلس في طريقها من المطبخ الى غرفتي ثلاث مرات.

تتناول امي فطورها في الصباح الباكر.

قالت لي بعد أن جلست بقربي:

-اتريد أن تفطر؟

اقتربت منها وسألتها:

- هل سمعت عن وصايا اليهود العشر.

تبسمت امي ، وهي قليل ما تتبسم وقالت:

- اعرف عن اليهود انهم سرقوا ارضي ، سرقوا فلسطين وقتلوا اهلها وشردوا شعبها وعاونتهم علينا بريطانيا وامريكا، اليهود بدهم يحتلوا كل ارضنا، وكما بتقول من النهر الى البحر.

لخصت امي بكلمات قليلة وصايا الحركة الصهيونية كلها.

قلت لامي:

- ان فلسفة ..

صمت قليلا، امي لا تعرف معنى كلمة فلسفة، لكنها كانت تقول لنا دائما اذا لم يعجبها كلامنا(بلا فلسفة)

عدت وقلت لامي:

-أن اليهود يريدون فلسطين بلا حدود، وان فلسطين ليست الا خطوة اولى وقاعدة انطلاق في بناء الدولة الصهيونية.

هزت امي رأسها، فهمت امي كل كلمة قلتها لانها تعرف اليهود وغدرهم.

وصححت لامي ما قالته أن حدود اسرائيل حسب الوعد الالهي المزعوم لانبياء اليهود تمتد بين نهري النيل والفرات.

وبينت لامي أن اسرائيل بلا حدود وان من النيل الى الفرات هو مجرد مرحلة اولى من اجل تبني الدول الاوروبية الوعد.

وقلت لامي أن الوصية الخامسة تطالب بموطئ قدم في فلسطين وتترك لصهيونيي كل فترة زمنية أن ينطلقوا الى ما هو ابعد من ذلك سواء كانت السيطرة والتوسع عسكريا او دوريا او اقتصاديا وثقافيا او اجتماعيا.

وبكت امي، بكت كثيرا عندما حدثتها عن الوصية السادسة والتي ارتبطت بالخامسة حيث تم اختيار فلسطين مأوى ليهود العالم وتهجيرهم اليه وانشاء دوله يفترض اخلاء المكان لافساح المجال امام اكبر عدد من المهاجرين الوافدين من جهة ولتحويل البلد الى كيان يهودي صرف بسكانه وديانته وتقاليده ولغته.

امي ككل الكنعانيات عرفت كل الاساليب الصهونية التي مارسها اليهود لاقتلاع سكان فلسطين منها.

وتعرف امي لانها عادت الى صباها عندما كانت تلبس الثوب الفلسطيني الزاهي بالوانه ورسوماته.

امي تعرف اكثر مني هذه الوصية التي طالبت باخلاء فلسطين من سكانها الاصليين وابنائها التاريخيين .

الوصية السادسة التي تعرفها كل نساء فلسطين حاولت اقتلاع جذور السكان الأصليين أرضا وتاريخا وذكريات وشطب الفين وخمس مئة سنة من تاريخ فلسطين.

مسحت دمعة امي من على خدها لكن دمعتها التي استقرت في قلبها صعب على مسحها.

هذه الدموع التي تملاء قلوب الفلسطينيات صنعتها ا لوصية السابعة بما تحمله من قوة وبطش وارهاب وتعذيب ومخابرات وتجسس وتسلط وكبت وقمع.

وهي وجه اخر لوحش حركة متعددة الرؤوس . الصهوينية حركة عسكرية مثلما هي عرقية واستيطانية وعنصرية واحتلالية لارض الغير واخلائية لسكان هذه الارض وقاعدة لمصلحة الاستعمار وترتبط بالوصية الثامنة من خلال حركة عمل عسكري سياسي ودولي وعملت الوصية التاسعة على بناء المجتمع اليهودي في فلسطين واصبحت هذا الكيان المصطنع دولة يهود العالم .

والوصية العاشرة تركت وسائل تطبيق هذه الوصايا للزمن من خلال تعدد الوسائل وتنوعها وتوافرها بين يدي صانع القرار.

**

19

كنت قبل ان يرميني صباح المخيم في شوارع المدينة الهائجة، اخلع قلبي واضعه في صندوقي الاسود، اودعه داخل الصندوق واحمله على كتفي الصغير واجلس في زاوية من زوايا المدينة اراقب كل من انتعل حذاء جديدا بنصف عمر، اتسول الاحذية ولا تجروء نفسي على تسول منتعليها، وعندما اعود مساء يقفز قلبي اليّ بشوق امسحه من الغبار الاسود واطبطب عليه واعيده الى مكانه آمنا مطمئنا.

كنت في قاع المدينة كثير التوهان، اتوه اياما ويكاد قلبي يسقط من بين جوانحي كلما رأى منظر الدماء تسيل في شوارع المدينة تبحث عن مجرى لها الى البحر، لكن الدماء تتجمد على قارعة الطريق ولا تجد من يمسحها.

وما أن سار الدم في الشارع الهارب من اطلاق النار والرصاص المتطاير بلا وعي او ادراك ، ما أن سار الدم الاحمر حتى نامت كل طيور عمان، عفوا هربت كل الطيور من اعشاشها وتوارت في سماء المدينة ،ربما يكون نهاية السكون ، طارت الطيور وتوارت فوق سحاب المدينة العالية.

كان القتيل شاب ربيعي، لم يكن غادر الربيع بعد حياته، بكته السماء والارض، قتل من رصاصة طائشة او هو الذي قتل الرصاصة الطائشة، لم يقترب منه احد، ظل ينزف دما حتى مات، وظلت الشوارع تنزف رصاصا حتى هربت من تحتها الدماء.

في صباح اليوم الثاني لم يكن في الشارع سوى دماء ربيعية تدوسها اقدام غريبة غير مبالية بها.

بعد أن مضى الصباح مرت جنازة الشاب ودخلت المسجد ، صلى عليها الرجال، كانت النساء خلفه ، وكانت امه تبكيه، يبدو انه كان على وشك الزواج،لم يسمح له الرصاص الطائش أن يكمل فرحته.

اخبرتني رجاء أن الشاب كان يعشق فتاة رائعة الجمال، وعلمت منها انها زارت بيتهم بغية الحصول على صدقة عن روحه فهي تسأل عن كل ميت خاصة اذا كان شابا يصلى عليه في المسجد وتقول في اليوم الثاني بزيارة منزل العزاء للحصول على الصدقة.

قالت لي:

-لم تكن حبيبته الفتاة التي كان سيتزوجها.

واخبرتني أن احدى الفتيات اعلمتها أنه رمى بنفسه في مرمى الرصاص حتى يتخلص من حياته لا يريد أن يتزوج من الفتاة التي اجبر عليها.

وقالت لي بعد أن عرفتها ومضى على هذه الحادثة سنوات:

ما زالت حبيبته تزور قبره الى اليوم.

**

20

قال ابي بعد أن خرج اخر رجل من بيت العزاء،:

-كانت اختكم بيسان اول الفرح

صمت قليلا، وبكى دون أن يعرف اننا نراه، ادار بوجهه الى زاوية معتمة ومسح دمعته.

- كانت الله يرحمها دوائي عند وجعي.
- ونظر الى امي القابعة بسوادها الذي لم تنزعه عن جلدها منذ أن هربت من بيسان تحمل في بطنها ابنتها بيسان، نظر في وجه امي الدامع وقال لها:
- كانت بيسان اول حمل واول بطن، وكانت فلسطينية مثلنا انا وانت، حملت بها في فلسطين وطردت معنا من فلسطين، تفتحت عيونها على ازقة ضيقة للمخيم .كانت تزرع معنا اشجار الدوالي وتسقي احواض النعناع والزعتر والريحان.

كانت هبطت مع ابي الى قاع المدينة، كانت رغم انها اكبرنا سنا الا انها لم تر عمان ابدا او انها لم تخرج من حارتنا في المخيم ابدا، كانت فرحة جدا لانها ستزور عمان وترى شوارعها لأول مرة

كان ابي قال لي انه سيزورني مع اختي بيسان في زاويتي ظهر اليوم الكارثة.

في الصباح كانت اول من اسيتقظ ، كنت اراها تعد نفسها كانما هي عروس في يوم زفافها ، كان بيسان جميلة جدا، ذات جمال فلسطيني كنعاني كما كان يقول عنها ابي.(كنعانية الملامح)

اعدت نفسها لعريسها في قاع المدينة باكرا، باكرا جدا.

هبطت قبلهم احمل صندوقي على كتفي واجر اقدامي باتجاه الباصات، لا استطيع صباحا السير من المخيم الى قاع المدينة، لابد أن استقل الباص وادفع اجرته الصباحية فقدمي لا تتحملان السير الطويل ثم العمل طوال النهار.

ودعتهم كعادتي وحملتني بيسان كعادتها في كل صباح قطعة من الخبز الذي تخبزه امي على الصاج، كانت مسحت قطعة الخبز بزيت الزيتون مسحا خفيفا ورشت عليها قليلا من الزعتر رشا ليكون طعام افطاري.

تبسمت بيسان مودعة وقالت:

- الى اللقاء في شوارع عمان.

قلت لها:

-سأقدم لك ضيافة كأس شاي بالنعناع.

واضفت:

- والمع لك حذاءك.

ضحكنا معا وقالت:

-لكنه جديد .

ضحكنا للمرة الاخيرة، وتركتها وكانت اخر مرة اتركها فيها دون لقاء.

قال ابي

- كنت اسير في الشارع الهابط الى البلد ، كنت اسرع الخطى وكانت بيسان تيسر خلفي مسرعة، كنا نسير باتجاه حسام بعد ا ن اشتريت لها حذاء جديدا كانت الله يرحمها تطلبه منذ زمن..

كانت تحتضن حذاءها كأنه طفلا بين يديها،سرنا مسافة ليست بالقليلة وفجأة سمعت صوت سيارة خلفي تتوقف بجنون، التفت وراءي .كانت دماء كثيرة تسيل وكانت بيسان على الارض والدماء تنز من جسدها .

الدماء تسيل من رأسها وما زال حذاؤها بين يديها. حملناها الى المستشفى لكنها كانت ميتة.

وحدثني ابي ، لست وحدي من حدثه، فقد كنا سبعة وامنا الثامنة تقبع في زاوية مظلمة لا نرى منها شيئا، حدثنا ابي عن بيسان الاخت وبيسان المدينة.

قال ابي:

- رأيت عمان للمرة الاولى ،كان الوقت حربا ، وكانت الشاحنة تحملنا انا وامكم وبيسان، كانت بيسان داخل بطن امكم،كانت الشاحنة تحمل في بطنها افراد لعائلات مبعدة هربا من الموت، محشورين داخل الشاحنة، لم نتوقف عن البكاء طيلة الطريق الطويلة التي قطعناها وقطعتنا، كانت قلوبنا مليئة بالحزن والغربة ومستقبل مشرد.

عندما توقفت الشاحنة قال احد الرجال:

- وصلنا عمان.

كانت بيوت عمان متراصة، كانها بيت واحد، لكنا خرجنا مرة اخرى من فم عمان الجنوبي ونزلنا ارضا تغطيها بيوتا قليلة متراصة تفصل بينها ازقة صغيرة ، كانت البيوت مسقوفة بالواح الزينكو .

قالوا لنا وقتها هذا مخيمكم .

**

اسير في شوارع عمان وحدي احمل صندوقي الاسود، عدت اليه احمل بداخله قلبي وبداخل قلبي احمل كل شئ ، او لا شئ.

عدت وحدي اليك يا شوارع العاصمة اتسكع محملا بهموم الدنيا هاربا من الناس الذين هربوا قبل ذلك مني.

اسير في شوارع المدينة اتجول ابحث عن رصاصة طائشة تقتلني ، كنت امشي وانشد:

(الا موت يباع فاشتريه

فهذا العمر ما لا خير فيه

الا موت لذيذ الطعم يأتي

يخلصني من العيش الكريه

اذا ابصرت قبرا من بعيد

وددت لو أنني مما يليه)

لكن الدنيا تعيش بسلام، هذا ما اخبروني به وحاولوا اقناعي به، لكني بلا سلام ابحث عن رصاصة طائشة تطيح برأسي في احد شوارع احدى المدن او العواصم وتجعل دمي ينزف ويسير كالطوفان في الشوارع، يسير مسرعا من شارع لشارع حتى يصل الى ازقة المخيم فيغرقها ويجرف بطريقه بيوت الزينكو ويرمي بها في الاودية الكثيرة.

لكني افشل حتى في البحث عن رصاصة طائشة، واجد نفسي سقطت في فخ المدن، فطرقات العواصم الكثيرة المتناثرة في كل ارجاء الدنيا فتحت فمها تلتهم الناس ، نأني الى العواصم كأفواج النمل ونسير تحطمنا جنود سليمان ببساطيرها.

كان قطاع الطرق في الحصراء يغتالون المال ويبيعون الناس كسبايا، واصبحت الان الصحراء بنفطها تغتال الانسان وتشتريه وتبيعه،واصبحت العواصم الكبيرة تعيد لقطاع الطرق امجادهم، تعلنهم حراسا علينا نحن ماسحي الاحذية، تعلنهم حراسا على قرانا وحراسا على ازقة المخيمات نهارا ويسرقونا ليلا، وحاميه حراميها.

تبهرني الالوان في قاع المدينة، الوان قوس قزح التي كنا نتراكض لرويتها بعد نزول المطر وخروج اشعة الشمس، لكن قوس قزح في شوارع

المدن الكبرى تبهر الوانه وتسبب العمى فهي لا تنطفئ وتلتف حولنا نحن ماسحو الاحذية، ترسلنا الى المقاهي والى المواخير تقتلنا تحت سيقان راقصة او بين احضان عاهرة تعتبر نفسها انبل واشرف من كل قطاع الطرق ، وربما ترمي بي او بغيري في غياهب السجون لاني لم استطع التعرف على عطرها.

ها انا اعود اليك ايتها الزاوية التي عشقت فيها وتزوجت فيها، اعود اليك حاملا صندوقي الاسود محملا بقلبي مثقلا بي .

سرت بصندوقي الاسود ابحث عنك، في كل مكان خطر على قلبي القابع داخل الصندوق، زرت درج العمارة التي التقينا فيه اول مرة عندما دخلتها خائفة هاربة من الرصاص القاتل، اتذكرين ذاك المكان، لم يعد كما كان، حتى اول ذكرياتنا غيروها وحولوها لباب زجاجي.

بحثت عن رجاء اما المسجد الحسيني، رجاء التي ماتت قتلا او انتحارا، بحث عنها لاسئلها عنك، وصرت ابحث عن الاحذية كي امسحها واجعلها كأضواء المدينة تلمع، ابحث عن الاحذية فلا اجدها، حذاء واحد يكفي، فلا اجد ، حتى فردة واحدة لحذاء قديم لكني لا اجد .

كل الاحذية تلمع(من دار ابوها) كما يقولون فالرجال لا يسمحون لنسائهم بالخروج دون أن يمسحوا احذيتهن ، والخادمات الاجنبيات يعملن ليلا في مسح احذية السادة وانا مازلت ابحث عن حذاء واحد او رصاصة طائشة.

ذهبت الى مدرسة البنات عليّ اجد تلك الطالبة بمريولها الاخضر تنتظرني امام مدخل المدرسة، طفت حول المدرسة سبعين شوطا باحثا عن صغيرتي، اضعت كل شئ ، لم اجد من يرشدني للطريق التي اتيت منها، أريد العودة من حيث اتيت، تهت في صحراء المدينة ، شوراعها كبيرة، تنوح هذه الشوارع المليئة ببعض المدرسين وطالبي العلم ورجال الامن.

مثقلة شوارعنا بالهموم ، لا يوجد سلام،حبلى هي شوارعنا وتكاد ينفجر رحمها او تجهض قبل اوان الولادة، سبعة اشهر الا ايام، لا تلد المرأة قبل أن تكمل اشهر حملها ، لكن حمل الشوارع لم يصل بعد الى هذه السبعة اشهر، ولا احد يعرف من هو الاب.الاب مجهول لا احد يعرفه

قد تجهض الشوارع سلامها لانها ملوثة وتحن الى علب الليل للرقص مع العاهرات وقطاع الطرق .

بحثت عنك ، او هربت منك، لا ادري ، وكنت سألت نفسي هذا السؤال:

(اباحث عنها ام اني هارب منها ، ابحث عنك ام اهرب منك..اهرب منك؟

أأهرب من نفسي الى صندوقي..)

انتهت في 5-7-2003 السبت مساء الساعة 9.10مساء